رواية

رَحَلَتْ رُوْحِي

تأليف : م. أماني محمد سعيد

«رَحَلَتْ روحِي.»

"إنّهُ لَمَحزنٍ حقّاً أنْ
تكونَ هذهِ القصةُ حقيقةً."

ك/أماني محمد سعيد.

رواية

" أَوَدُّ فَقَطْ أَنْ أُعَبِّرَ عَمَّا بِقَلْبِي
بِأَلْفَاظِي، فَهَلْ أَعْطَيْتَنِي مِنْ وَقْتِكَ
مَا يُحَيِّي مَشَاعِرَكَ بِكَلِمَاتِي.. "

"وَلَقَدْ صَبَرْتُ عَلَى فِرَاقِكِ صَبْرًا
جَمِيلاً وَلَكِنَّ الذِّكْرَى أَلَمٌ لاَ يَزَالُ."

WR: Mony.

إهداءٌ إلـي:...

« تلكَ الأرواحِ الطيبةُ التي
رحلتْ دونَ وداعٍ حقيقي ، تُخلّفُ
وراءَها جرحًا لا يلتئمُ ، وحزنًا
عميقًا في قلوبِنا.»

على سطحِ بيتي، أضعُ وسادةً كبيرةً تُغطّي مساحةً واسعةً من الأرضِ.

أستلقي على منتصفِها، ناظراً إلى سماءِ الكونِ.

أرى النجومَ تتلألأُ كأنَّها جواهرُ مُنتثرةٌ في سماءِ الليلِ.

بعضُها كبيرٌ وبعضُها صغيرٌ، بعضُها لامعٌ وبعضُها باهتٌ.

أغمضُ عينيّ لحظاتٍ، أستنشقُ هواءَ الليلِ العليلَ، وأشعرُ بِنسيمٍ خفيفٍ يُداعبُ وجنتيّ.

أفتحُ عينيّ ببطءٍ، وأعودُ للنّظرِ إلى سماءِ الكونِ الفسيحةِ.

أجلسُ هكذا دائماً أتأملُ السماءَ، لا شيءَ ينتشلني من قاعي سوى الجلوسِ هكذا و أتخيلُكِ واحدةً من هذه النجومِ، أكثرَ النجومِ لمعاناً و رونقاً.

أرسلُ إليكِ نظراتِ شَوْقٍ من بعيدٍ، وأتَمَنّى لو أستطيعُ الوصولَ إليكِ.

أتَمَنّى أن أَمُوتَ قريباً ونَلْتَقِي من جديدٍ.

وَلْتَعلمِي يا حبيبتي أنَّ حُنيني لكِ يقتَلُني، وَأَنَّ فِراقَكِ يشْوي فؤادي.

أتمنى لو أمضيتُ بقيّةَ أيّامي معكِ، وأنّ الموتَ لم يفرقُ بيننا

أذكرُ أوّلَ لقاءٍ جمعَ بيننا،

كأنّهُ كانَ أمسِ كنتُ أتوقّعُ أنْ أقضيَ معكِ أجملَ أيّامي، ولكنّ القدرَ شاءَ أنْ يفرقَ بيننا..

«رَحَلَتْ روحِي وَ مازال جَسَدِي.»

"أحفظهُ كأنّهِ بالأمسِ كانَ، كلّ وقتٍ و تاريخٍ و مكانٍ جَمعَنَا، لا يغيبُ عنّي شيءٌ، كأنّهُ أمامَ عينيّ."

«استحضرتُ الماضي كلّه استحضارًا يُعظِّمُ ما كان به من انتماءٍ وأحداثٍ، أَتْلُوَهَا عَلَيْكُمْ ما اسْتَطَعْتُ إِلَيْهِ سَبِيلًا.»

"٢٦ من شهر أكتوبر، سنة ٢٠٠٩ ...."

لَقِيَتُكِ َأوَّلَ مَرَّةٍ .....

منذ أربعُ عشرَ سنةً ذاتَ يومٍ كنتُ أَمْرُّ على صديقي في الجامعةِ ،كما أَمْرُ عليه كلَّ يومٍ وقت الراحة.

كُنا في نفسِ السنةِ الدراسيةِ، وَلكننا كُنا في كليتينِ مختلفتينِ.

فَأَنَا كُنتُ في كليةِ العلومِ، وهوك كانَ في كليةِ الهندسةِ ، بينما كنتُ أتمشى في ساحةِ الكليةِ ذاهبُ إليه، لمحتُ بقايا ابتسامةٍ على ثغركِ، كأنَّها زهرةٌ تفتحتْ خجلاً.

توقفتُ للحظاتٍ، أُراقِبُ تلك الابتسامةَ الخافتةَ، كانت جالسه مع زميلتها، وتتحَدَثانِ بِهُدوءٍ تام و تعلّوا و جهوهم بسمة .. دائمًا ما أخفضُ نظري خجلًا و أنا أسير، ولكنها المرة الأولى التي أُبصرُ فيها فتاةً عن قربٍ ، فجذبتني عيناها، وجعلتني أُحدّقُ بهما دون شعورٍ مني.

فوقفتُ مُتَحَيّرًا، مسلوب الإرادة لا أدري ما أفعلُ!!.

و في لحظةٍ نظرت نحوى وتقابلتْ أعينُنا.

لعلّها أحسّت أن هناك من ينظر إليها!!.

فَجَمَدَتْ دِمائي، وَتَوَقَّفَتْ أنفاسي، كأنَّني أُصِبْتُ بسحرٍ.
حتى غضتُ طرفي سريعًا خوفًا من اللهِ.
ثمّ مضيتُ في طريقي، وقلبي يُحَدِّثُني أنّني قد وقعتُ في الحبِّ. مشيتُ بخطواتٍ ثقيلةٍ، وكأنّ الأرضَ قد ابتلعتْني من شدّةِ الخجلِ والارتباكِ.
دخلتُ إلي قاعتي و جلستُ في مقعدي، أحاولُ التركيز على ما يُقال في المحاضرة، لكنّ بلا فائدة.
فكلّ ما كانَ في ذهني هو تلكَ الابتسامةُ الخافتةُ التي أضاءتْ وجهكِ و أنا أسير... حاولتُ جاهدًا أنْ أُنساكِ،
ولكنّ دون جدوى، فكلّما حاولتُ النسيانَ،
أو أنْ أُمحوَ صورتكِ من ذهني ، أنْ أُشغلَ نفسي بأيّ شيءٍ آخرَ، لكنّ كلّ محاولاتي باءتْ بالفشلِ.
مرّ يومي كلمح البصر ، ففي المساء ، جلستُ على كرسيّي أُطالعُ الكتابَ أمامي.
لكنّ أفكاري كانت شتّى، لا تقرّ على شيءٍ، فكلّ ما كانَ يُشغلُني هو أنتِ.
أغمضتُ عينيّ، وبدأتُ أُحلّقُ في خيالي، مُستعيدًا صورتكِ الجميلة. تذكّرتُ ابتسامتكِ البهيّة، ونظراتِكِ العذبة، عندما تقبّلت أعيننا، وعلى الرغم من إغضائكِ بصركِ سريعًا..
غمرني شعورٌ دافئٌ غريبٌ لم أعهدْهُ من قبل.

لم أركِ سوى مرةٍ واحدةٍ، لكنّ صورتكِ حاضرةٌ في ذهني، كأنّها محفورةٌ فيه، لا تُفارقُهُ أبدًا.

فَأَعْجَبُ كُلَّ الْعَجَبِ لِذَلِكَ!.

شعرتُ بقربكِ مني،

كأنّكِ روحي التي تسكنُ جسدي.

لم أعرفْ اسمَكِ!!.

ولم أعرفْ سنكِ!!.

ولم أعرفْ من أينِ أنتِ!!.

ولم أعرف أي شئ يخص حياتكِ !!.

لكنّني شعرتُ بشيءٍ عذْبٍ يَسري في روحي عندَ لقائنا، كأنّنا كنا نعرف بعضنا البعضَ منذُ أزمانٍ بعيدة...

******

"٢ من شهر نوفمبر، سنة ٢٠٠٩ ...."

ثاني مرة رأيتكِ فيها....

ستةُ أَيامٍ مضتْ وَلمْ يغبْ طَيفُكِ عنْ خيالِي، وَكَأَنكِ هالةٌ مِنَ النّورِ تُرافِقُني أَيْنَمَا ذَهَبْتُ.

والْيَومَ، مِنْ كَرمِ اللهِ، حظيتُ برؤْيتكِ مرّةً أخْرى.

كنتُ أنا وزميلي نتحدثُ أمام قاعة المحاضرة الخاصّة به، فَأَبْصرْتُكِ تَدخُلِينَ نفسَ القاعةِ، فعلمتُ أنّكِ من نفسِ سنّي، ولما أَردتُ أنْ أَسْأَلَهُ عنكِ، منَعَتْني غيْرَتي.

لم أحضر محاضرتي ذاك اليوم، وصممتُ على الحضورِ في نفس محاضرتكِ.

ليس من عادتي فعلُ ذلك !!.

لكنَّ قلبي هو من يَرشدُني.

استغرب رفيقي في البداية، ولقد تعجبتُ أنا أيضًا من نفسي أكثر، لكوني منعزلًا وخجولًا لكنها فرصتي ولن أضيعها لأعرف عنكِ ولو قليلًا حتى.

لم أجلسْ بِجانبِ زميلي، فعيوني تفضحُني ،ومن يدرسُ الهندسةَ ذكيٌّ، شديدُ التركيزِ، فسيكتشفُ الأمرَ بسهولةٍ،

ولا أحبُّ أنْ ينظرَ إليكِ أحدٌ غيري.

دخلتُ القاعة و جلستُ في مقعدٍ خلفَ مقاعدِكِ مباشرةً، كم كنتِ رقيقةً في جميعِ تصرفاتِكِ، هادئةً وحنونة، أراقبُ كلّ حركاتِكِ وسكناتِكِ.

جذب انتباهي غياب خاتمٍ في إصبعها البنصر، مما يدلّ على أنّها حرةٌ غيرُ مُقيدةٍ بأيّ رابطٍ عاطفيّ ،شكرتُ الله تعالى بِكثرةٍ في جوفي.

أراقبكِ في خُفيةٍ، لا شعورٌ لي بِجُرمٍ اقترفتهُ، كأنّه محلّ لي أن أنظر إليكِ !!.

لكنكِ الوحيدة من بين بني آدم التي لم تُفلحِ عيني في إغضاءِ بصرِها عنكِ.

أفكارٌ شتّى راودتني وأنا جالس، أبرزها قرب تخرجي من الجامعة هذا العام، مع العلم أنّ وظيفتي جاهزة بانتظاري في شركة خالي، مهندسًا كيميائيًا، على الرغم من تفوقي الدراسي ، لم أكن أتطلع إلى هذا المجال بشكل خاص. لكنني أدرك أنّ وظيفتي في شركة خالي فرصةٌ عظيمةٌ لا ينبغي تفويتها. بينما يتبقى عامٌ واحدٌ على تخرجها،

أتنبأ بحياتنا معًا منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها حتى كبرنا سوياً.

كل شيء يبدو سهلًا في الخيال، لكن الواقع أعظم بكثير. كان حلماً جميلاً أفقتُ منه ووجدتُ إن الدكتورة أنهت شرحها ، انتهتْ المحاضرةُ، وخرجَ الطلابُ من القاعةِ يتبادلون أطرافَ الحديثِ،

سارتْ زميلتكِ أمامَكِ في الممرِ، بينما كنتِ تسيري خلفَها. وبينما أتابع خطواتكِ بعيني ، لمحتَ مجموعةً من الشبابِ سيسيرون خلفَكِ مباشرةً ، فنهضتُ فورًا من مكاني وَسِرْتُ وراءَكِ أنا ، في الوَسط كالحاجِز الذِي فرقَ بينكُما ، أتطلع إلي الأرض غاضضًا بصري..

وفقتِ لثانية ، ولا أدري ما السبب!.

و نظرتي خلفكِ.

نَاحيتِي!!.

وبينما كنتُ أنظرُ أمامي،...

تلاقت أعينُنا، ارتبكتُ قليلاً، وخفضتُ رأسي سريعاً وأظنّ بأنّكِ سمعتِ دقاتِ قلبي عند تلك اللحظة.

لمتُ نفسي ليلَ ذلك اليوم طويلاً على ما اقترفتُ من ذنبٍ في حقّ نفسي وحقّكِ، فأنتِ لستِ حلالي لأفكرَ فيكِ، وربما تكونينَ نصيبَ غيري، وهذا ما جعلني أشعرُ بالاختناقِ فجأةً. سأبذلُ قصارى جهدي لأكونَ لكِ، وسأفعلُ المستحيلَ لكي

تصبحي حلالي .

"٥ من شهر نوفمبر، سنة ٢٠٠٩ ...."

ثالث مرة رأيتكِ فيها...

لقاءٌ يمضي ، وذكرياتٌ تبقى ، تنهش روحي ...

ما زلت أذكرُ ذلك اليوم، يُؤلمني بشدة أنكِ أصبحتِ ماضيًا، ذكراكِ تُؤلمني.

وما أقسى من أن تفقد إنسانًا عزيزًا، وتصبح ذكراه في معاقد الماضي، وتتحول أيامها الجميلة إلى خيال يطاردك في منامك، ويؤلمك أشد الألم في يقظتك؟ .

في موسم البرد القارس، حين هطلت رذاذات من ماء المطر الخفيف ،اجتمعنا سوياً تحت قبة السماء الصافية.

أنا و أنتِ ، يا حبيبة القلب.....

كان يوم الإثنين أقرب الأيام إلى قلبي.

سماءٌ غائمةٌ، ونسماتُ الهواءِ تحوطُنا ، و أنا مغرمٌ بِهذهِ الأجواء وَقَلْبِي أصبح مغرمٌ بِكِ أكثر.

جلستِ على أحد المقاعد تحت مظلة الشمسية، برفقة صديقتكِ التي لا تفارقكِ أبداً.

أنا، بدوري، كنتُ جالسًا مقابلكِ، أتأمّلكِ بصمتٍ، وأستمعُ إلى صوتِكِ العذبِ،

لم أكن لأهتم بحديثكِ بقدر شوقي لسماع صوتِكِ،
صوتِكِ يُلامسُ قلبي بِرِقَةٍ، يشبهكِ حنون و هادئ أشعرُ بسعادةٍ تغمرُ قلبي لكونك أمامي.
كان شعورًا دافئًا يملأُ كياني، شعورٌ بالأمانِ ،الحبّ والسكينة.
ظللتُ أُتطلعُ إليكِ مُتَيّمًا بجمالكِ،
حتى التقتْ أعينُنا، فلم يرتعشْ لي جفنٌ، على الرغم من رهبتي من نظراتكِ المفاجئة.
بعد مرور لحظات أخذت نفس عميق، و نظرت بعيدًا،
في نفسي هَمَسٌ من السعادةِ يَتَوَلَّدُ حينَ تُلْقِي عَيْنُكِ نظرةً ناحيتي، أو أي نظرة عليّ، تُمَيِّزُني من بينِ بَنِي البشرِ، وَمن بينِ الأشياءِ ،و من بينَ كُلِّ شيءٍ و أيّ شيءٍ ، حتَّى لو كانت صدفةً عابرةً لا أكثر... فأنا مطمئنٌّ لِما أشعرُ به.
كنتُ بكر المشاعر، لم أدرِ ما يفعلُ المرءُ في تلك الأوقاتِ.
طوال عمري،
حرصتُ على أن أُحافظَ على قلبي سليمًا من شوائب الواقع، فكان طاهرًا نقيًا،
لم يمسّه دنسٌ أو غبار أو أي شهوة من شهوات الدنيا.
لكن الآن، لا ريب أنّه قد بدأ يتغيّر، ولو بقدرٍ ضئيل.
فعزمتُ أن يكون بيننا رباط شرعي قريبًا.

" ١٠ من شهر نوفمبر، سنة ٢٠٠٩ ...."

رابع مرة رأيتكِ فيها....

كانتِ مختلفة هذه المرة قليلاً عن باقي المرات السابقة، فقد رأيتُكِ خارج حدود الجامعة.

كنتُ أزورُ خالي صباحَ ذاكَ اليومِ، وصلّينا الجمعة معًا، وفي طريقِ العودةِ قابلتُكِ.

في شارعٍ مزدحمٍ مكتظٍّ بالمارّة، لكنّه كان مليئًا بالحياة والنشاط، وكان وقتًا ما بعد صلاةِ الجمعةِ، لم أكن أتوقّعُ أن أراكِ في مثلِ هذا المكانِ، شعرتُ بمزيجٍ من الدهشة والسعادة عندما رأيتُكِ، فقد اعتدتُ رؤيتكِ داخلَ أسوارِ الجامعةِ فقط.

يا لهُ من لقاءٍ مُفاجئٍ لم أكن أتوقّعهُ أبداً رؤيتكِ هنا وخاصّةً هذه البلدةَ!!.

لم تكن بلدتِي، بل كانت بلدةَ خالي، وأظنّها أيضًا بلدتَكِ.

كانت تمشي مع امرأة تقترب على الخمسين من عمرها، ومن المؤكد أنها والدتها لشدة الشبه بينهما.

كنتِ تتحدثين وابتسامةٌ خفيفةٌ كانت ترتسم على شفتيكِ.

كانت ترتدي فستانًا طويلًا بلونٍ أزرقَ داكنٍ، مُزيّنًا بخيوطٍ

ذهبيةٍ تُضفي عليه لمسةً من الأناقةِ.
وكان عليها حجابٌ طويلٌ أسودُ اللونِ، يُغطّي شعرها وجزءًا من وجهها، لكنّهُ لم يُخفِ جمالَ عينيها العسليتينِ اللتينِ تُشعّانِ بِالحياةِ.
كانت مختمرةً، وكم كان ذلك رائعًا !.
كان يفصلنا عن بعضنا البعض مسافةٌ تقاربُ المترين، أنا آتٍ من الخلفِ بينما كنتِ أنتِ من الأمامِ.
وعندما وصلنا إلى منتصفِ المسافةِ ونحن نسيرُ مقابلَ بعضنا البعضِ، تقابلتْ أعينُنا.
ثمة شعورٌ مختلفٌ تمامًا أحسستُ بهِ في تلك اللحظةِ.
شعرتُ بدفءٍ يسري في جسدي، كأنّ الشمسَ تُشرقُ من داخلِ روحي.
لم أختبرْ شعورًا كهذا من قبلُ، ولا أستطيعُ أن أصفَهُ بدقةٍ.
كان شعورًا مزيجًا من السعادةِ والراحةِ والاطمئنانِ.
لا أعرفُ هل تذكرينَ أنّكِ رأيتِني من قبلُ أم لا؟
لا أدري ولا يهمّ.
لكنّني سعيدٌ الآن، سعيدٌ جداً وهذا كافٍ، كافٍ جدًا بالنسبةِ لي و لقلبي.

*****

"١٨ من شهر نوفمبر، سنة ٢٠٠٩ ...."

خامس مرة رأيتكِ فيها...

لقد راودتني تلك الليلة تساؤلاتٌ تدور في خاطري عن اسمكِ، وربما عن مكان منزلكِ. بحثتُ طويلاً دون جدوى، فلم أجد حيلةً سوى اصطحاب أختي **"حنان "**.

التي تصغرني بثلاث سنوات معي إلي الجامعة ، لكي تتعرف عليكِ وتعلم عنكِ كل شيء.

وكنتُ قد أخبرتها عنكِ من قبل، وعن جمالكِ وطِيبَةِ قلبكِ الظاهرة، فاشتاقت لرؤيتكِ والتعرف عليكِ.

وقد كان بالفعل، فجاءت معي في صباح ذلك اليوم، دخلنا سوياً أنا وأختي إلي ساحة الجامعة، ورأيتكِ جالسةً هناك، وكانت أختي تمشي بجانبي فأشرتُ إليكِ .

وسرعان ما تألقت ابتسامتها على وجهها حينما رأتكِ.

فكان كل شيءٍ طبيعيًا. أختي حنان - حفظها الله - اجتماعيةٌ بطبعها، فلم تجد صعوبةً في التعرف عليكِ والحديث معكِ.

وفي نهاية ذلك اليوم، هاتفتُ أختي لكي نذهب إلى منزلنا،

ففضولي يقتلني لأعرف عنكِ أي شيء. جاءت بمفردها، كما أخبرتها أن تتخفى جيدًا كي يبدو الأمر طبيعيًا ولا يشك أحد في شيء.

في الناحية الأخرى من الطريق، رأيتكِ. لوحتِ إليّ اختي بيدكِ، ونظرتِ ناحيتي بنظرة غريبة. أظنّكِ فهمتِ شيئًا. وأظنّها نظرة استيعاب لما يحدث ،في تلك اللحظة، شعرتُ بخليط من المشاعر المتضاربة ،فأختي بطبيعة الحال تبدو أصغر منا بقليل، كانت في الفرقة الأولى من كلية الطب، و من ناحية أخرى يبدو عليها صغر السن بالنسبة لحجمها الضئيل نسبيًا.

ومن المؤكد أنها حكت لها كل شيءٍ عن نفسها.

عدنا إلى منزلنا، وَحَكَّتْ أُخْتِي عَنْ كَمْ أَنْتِ قَرِيبَةٌ إِلَى الْقَلبِ، وَعَدتْ صفاتِكِ الْحَسَنَةَ الَّتِي لَوْ عَدَدْتُهَا وَاللَّهُ مَا أَحْصَيْتُهَا.

عرفتُ اسمكِ ومعظم الأمور عنكِ ، ورقم هاتفكِ.

كم توقعتُ تمامًا اسمكِ استثنائيًا مثلكِ ، يا **"شمسُ "**.

شمسُ، لَمْ أَكُنْ لأُحِبَّ الشَّمْسَ، تِلْكَ النَّعْمَةَ الَّتِي فِي الْوُجُودِ ، لَكِنِّي أَحْبَبْتُكِ وَهَذَا كَافٍ لِقَلْبِي ،يَكْفِينِي أَنَّهَا اسْمُكِ كَيْ أُحِبَّهَا.

كانَ ميلي إلى القمر ، الغيوم ، الليل ، السماء ، البحر ، وإلى كلّ ما هو هادئ و يشعرُ المرء بالأمان .

وعند المساء ،اتصلتُ بكِ ،هكذا فجأة دون سابق إنذار ، رنّ

هاتفكِ مرّةً واحدة، ثمّ مرّتين، ثم ثلاث مرات ،و مع كل رنة، تزداد نبضات قلبي وتوتري.

لم أكن أتوقع إن تردي على مكالمتكِ،

ولم أكن أعرف ماذا أتوقع أن أسمعه.

انتظرتُ بفارغ الصبر، حتى رددتِ على المكالمة.

كان صوتكِ هادئًا رقيقًا، كنسيمٍ عليلٍ في يومٍ حار، لكنني شعرتُ بالارتباك يعتصِرُ قلبي.

جف حلقي، وكأنّ لسانًا من حديدٍ قد كبلَهُ، فلم أتمكن من تكوين جملةٍ كاملة، ولم أعرف ماذا أقول.

سيطرت عليّ مشاعرٌ متناقضةٌ، خوفٌ وقلقٌ وفرحٌ وشوقٌ، كلّها تلاطمت في داخلي كأمواجٍ عاتية، تاركةً إياي عاجزًا عن التعبير عن أيٍّ منها.

وبينما كنتُ غارقًا في صمتي، سمعتُ صوتكِ الرقيق، ينبعث من جديدٍ عبر الهاتف **" ألو .. السلام عليكم ، من معي ؟ ".**

في تلك اللحظة، انهار سدّ المشاعر الذي كنتُ أحاولُ صدهُ، فانهمرتْ الكلماتُ من فمي كالسيلِ العارمِ، لا أستطيعُ إيقافَها.

أخبرتكِ عن اسمي، وعُمري، وكم مرّةٍ التقينا فيها. أخبرتكِ أيضًا عن رغبتي الشديدةِ في نيلِ القربِ منكِ، وأنّني جهازٌ متكاملٌ من جميع النواحي.

أخبرتكِ بكلّ ما أشعرُ به، بكلّ الخوفِ والقلقِ والفرحِ

والشوقِ الذي يعتصِرُ قلبي، هكذا بكل بساطة...
لا أعلمُ ما أصابني، فقد تحدّثتُ إليكِ أكثرَ ممّا تحدّثتُ إلى أيّ شخصٍ آخرَ في حياتي.
أخبرتكِ عن كلّ إحساسي ومشاعري، دون خجلٍ أو تحفّظٍ.
وكأنّ لسانَ حالي يقولُ: "ها أنا ذا أمامكِ، خالياً من كلّ زخارفِ الدنيا، أُظهرُ لكِ روحي وقلبي، بكلّ ما فيهما من عيوبٍ ومزايا."
أخبرتكِ أخيرًا أنّني اتّصلتُ بكِ لأطلبَ رقمَ هاتفِ والدكِ، إن كان هناك قبولٌ منكِ لذلك..
وبعد صمتٍ طويلٍ من ناحيتها، جاء صوتها مبحوحاً مختنقًا، قالت فيهِ الرقمَ، ثمّ أغلقتِ الهاتفَ سريعًا.
وعلمتُ بعد ذلك سبب حزن صوتك حينما اتصلتُ بك.
أدركتُ حينها حجمَ الهمّ الذي يُثقلُ كاهلكِ، وكمْ هو عظيمٌ ذلكَ الألمُ الذي يُمزّقُ قلبَكِ.

ثلاثة أيامٍ مضتْ ولم تَأتِ ، إلى كليتكِ ، بكل صراحة ، لقد اشتقتُ إلي رؤيتكِ شوقًا عظيمًا.
لكن لم ينتابني القلق عليكِ ، فقد استودعتكِ عند الله، واللهُ لا تضيعُ ودائعه.

*****

"٢٦ من شهر نوفمبر ، سنة ٢٠٠٩ ...."

سادس مرة رأيتكِ فيها...

منذ أسبوع، تواصلت مع والدك الكريم هاتفياً، ولم أتطرق سوى إلى رغبتي في مقابلته. وسرعان ما لبي ندائي، فالتقينا بعد يومين.

خلال اللقاء، أخبرتهُ نصفَ الحقيقةِ، حيثُ ذكرتُ له أنّني رأيتُكِ أكثر من مرة، وأنّني معجبٌ بكِ كثيرًا ،وتأكدتُ من أنّها امرأةٌ طيبةٌ خلوقةٌ، تُناسبني في أخلاقها ودينها.

و أخبرتهُ برغبتي في طلبِ يدكِ للزواج، وطلبتُ منهُ أن يُحددَ لي موعدًا لمقابلتكِ ووالدتكِ في منزلكم.

وبفضلِ الله تعالى، فقد وافقَ والدكِ الطيب على طلبي، وحددَ لي موعدًا لمقابلتكم اليوم ،لم أُخبرْ والدتيّ عن رغبتي في الزواجِ من حبيبتي، إلا أن يتمّ قبولي من قبلها، وذلك حرصًا منّي على مشاعرها.

ها أنا الآن، أقف على عتبة منزلكِ.

استقبلني والديكِ بِترحابٍ شديدٍ، أَجَرَيْتُ حوارًا صريحًا

معهما،
فَأَطْلَعْتُهما على كلّ شيءٍ يخصّني، حياتي، دراستي، عملي، وأهدافي المستقبلية.
تَكَلَّمْتُ بِصدقٍ وشفافيةٍ، وَأَجَبْتُ على كلّ أسئلتهما بِصراحةٍ.
بَدا واضحًا من خلالِ تعابيرِ وجهيهما أنّهما مُعجَبَانِ بِي وبِشخصيتي. حَمَدْتُ اللهَ تعالى في داخلي حمدًا عميقًا على كلّ ما منّ بهِ عليّ.
خرجت والدتكِ لِتُنَادِيَ عليكِ .
جئتِ وجلستِ على الأريكة بمسافةٍ تفصلُنا، لكنّكِ كنتِ أمامي حاضرَةً، لقد استأذن أبويكِ بالانصراف، فجلسنا بمفردنا.
ساد الصمتُ الغرفةَ لبرهةٍ، لم أَدرِ ماذا أقولُ، وكأنّ لساني قد عُقِدَ.
نظرتُ إليكِ مُترددًا، خاشيًا من كسرِ هذا السكونِ الجميلِ بِكلمةٍ خاطئةٍ.
لكنّ عينيكِ الحنونتينِ شجّعتاني على التحدثِ، فابتسمتُ خجلاً وقلتُ: **"أهلاً"**.
ردت عليّ بصوتٍ رقيقٍ : **"أهلاً بك يا محمد"**.
إن أسمع صوتك قريبًا إليّ هذا الحدّ ،أَحسَستُ بالأمانِ، وإِنْ أُبصِرِ وجهَكِ عن قربٍ، أَيقنتُ أنّكِ أجملُ نساءِ العالمينَ بلا منازعٍ.

ساد الصمتُ مرةً أخرى، لكنّه لم يكن صمتًا ثقيلًا أو مُحرجًا، بل كان صمتًا هادئًا مريحاً...

بعد مرور لحظات قصيرة، نطقتِ بكلمات عفوية صريحة، وواضحة للغاية، قلتِ :

" محمد....

صحيحٌ أنني لا أمانعُ بالارتباطَ بشخصٍ مثلكَ ،أشعر بمشاعرك النبيلة تجاهي، وأُقدّر إعجابك بي، بل أُبادلك مشاعر الاحترام والتقدير. إنّ ما وصل إليّ من مشاعرك يُثلج صدري ويُسعدني، وقد لامست مشاعرك قلبي لدرجةٍ عظيمةٍ، ولعلّها قد وصلت حدّ الحبّ.

لكن، واجبٌ عليّ أن أكون صادقًه معك. أُعاني من مرضٍ في خلايا دماغي يُهدّد حياتي، ويجعل استمراري على قيد الحياة أمرًا صعبًا، بل قد يكون مستحيلًا في بعض الأحيان. لا أُريد أن أُعرّضكِ للألم والمعاناة، من خلال علاقةٍ قد تنتهي بشكلٍ مأساوي.

لم يُرِدْ أبيّ رفضكَ من غير علمٍ منّي ، فقد علمَ من خلال لقائه بكَ أنّكَ تُحبّني، فجاء بكَ إليّ لنتحدّثَ وجهاً لوجهٍ... و أردتُ منك الحضورَ كي نُنهيَ هذا الموضوعَ ههنا ".

أَقَل ما يقالُ بِأنّي أَنْصدمتُ أَشَد الانْصِدامِ، أحسستُ باختناقٍ

شديدٍ كادَ يُفقدني القدرةَ على التنفس.
فاضتْ عيناي بالدموع، استوعَبتْ دِماغِي الأمر أَعْظَمَ الاسْتِيعَابِ، وَأَمَّا قَلبِي فَلمْ يَفعلْ بعد.
فقلتُ لها: **"أقسمُ لكِ إيمانًا مؤكدًا أنّني سأتزوجُكِ ولو ليومٍ واحدٍ فقط "** .
تنهدت بحرقة و قالت: **"لم لا تختار غيري؟، بنات آدم كثيرون و تتمناك ألف واحدة منهن."**
قلتُ لها مُصرًّا: **" لكنكِ بهنَّ جميعًا في عيني ، و ما دمتُ حيًا فلن أتزوجَ غيركِ ".**
نظرتْ إليّ بعينيها العسليتين وقالتْ : **"ولكن أنا مريضةٌ مُحتضرةٌ، لن أبقى على قيد الحياة طويلاً."**
قلتُ لها مُؤكّدًا: **"مهما كان الأمر ، فأنا لا أُبالي ، سأكون معكِ حتى آخر لحظةٍ في حياتكِ ، وسأُحبّكِ حتى بعد مماتكِ ، منذُ رأيتُكِ ، والقلبُ يغمرهُ الفرحُ ، ولن أدَعَكِ تفلتين من يدي، وسأبذلُ المستحيلَ لكي تكوني لي زوجةً...**
اسْتخرتُ اللَّهَ و عزمتُ أَنْ تَكُونِي مِنْ نَصِيبِي
أَتَوافِقِينني أَمْ تَختلِفينَ؟
كَيْ لَا أَنْدُم بَعد ذَلِكَ ،كَيْ لَا أَنْدُمَ طُولَ عُمري . "
ما الفائدةُ من أن يعيشَ المرءُ منّا ما يزيدُ اثنين وعشرين

عامًا دون سعادةٍ حقيقيةٍ، تلك السعادةُ التي تنبعُ من القلبِ لا الفم ؟.

امن يدري متى يحين موعد الرحيل؟ فالحياة قصيرة، ولحظاتها سريعة الزوال.

وبعد نقاشٍ دارَ بيني وبين أهلها ساعتينِ من الزمانِ، نقاشٍ هادئٍ تمامًا مغلّفٍ بكلّ معنى الإنسانيةِ ، تمّ الاتفاقُ على أن يأتي أهلُي في المرةِ القادمةِ.

كنتَ ذا عزيمةٍ صلبةٍ، فأقنعتهمُ بالأمرِ، ورأوا فيكَ ما لم يرهُ غيرُهم، وأنّك ستكون سندًا لبناتهم في آخرِ فترةٍ من حياتها.

ألا تستحقُّ حبيبتي الونسَ الدنيويَّ ولو قليلاً من حياتها ؟.

بل تستحقُّ كلّ شيءٍ في هذهِ الدنيا ،تستحقّ الدنيا بأسرها!.

ولكنَّها تشعرُ أنهُ لا يستحق الونسَ الزائل ، بلْ يستحق أنْ يكُون لهُ الدنيا بأَسرِهَا ، وإنْ كانَ عدَدُ المراتِ التي تقَابَلُوا فيها لمْ تَتَجَاوَزِ الأصْبَعَ.

لكنّ قلبَها يُقاومُ هذهِ الأفكارَ، ويُخبرها أنّ محمداً هو الشخصُ الوحيدُ الذي تستطيعُ أن تُحبّهُ بكلّ جوارحِها.

وَهِيَ سرطانُها له تأثيرٌ كبيرٌ على حياتِها، من حيثِ أنَّهُ إذا جاءَ لا يذهبُ إلا بموتِ صاحبَةِ السرطانِ ، وإن كانت قد تعافَت منهُ مرةً سابقةً.

تُفكّرُ في عائلتِهِ وأصدقائهِ، وتتخيّلُ نظراتِ التعاطفِ والشفقةِ

التي ستُلاحقُهُ بسببِ مرضِها.
في نفسكَ أردت تعُجْلَ في زواجِها منكَ ، فَفَعَلْتَ ، وأَحَبّتْكَ وسعدتْ بِوُجُودِكَ في حَياتها الخاليةِ من أدنى معنى الكمالِ ، سوى الرضا. فَأَعْجبَكَ الرِّضَا التامُّ الذي بداخلها.
لا يحزن المرء على فراق الدنيا، دُنياكُمْ هذهِ لاَ حُزنَ علي مُفارقتها بِلاَ فراق الأحبّة هو الجرحُ العميقُ الذي لا يندمل.
كانت تنتظرُ لقاءَ ربِّها، فجِئْتَ أنتَ وسَدَّدْتَها وأَسْعَدْتَها في آخرِ فترةٍ من عُمْرِها.
وهيَ قد رأَتْ فيكَ العوضَ الباقِيَ منْ عُمرِهَا..
ذاك الشابُّ البسيطُ طيّبُ الخُلْقِ حَسَنُ الوجهِ، الخجولُ صاحبُ البسمةِ الدائمةِ. أما أهلُكَ ، فقد أقنعتهمُ بالأمرِ، ولن يقفوا حائلًا بيننا وبينَ سعادتنا.
كانَ والدُكَ قد لقي ربهُ الأعلى ، وأمُّكَ وأختُكَ- أطالَ اللهُ عمرهما – هما من سيُرافقانِكَ في رحلت حبك .
تاركًا إيّاكَ وأختَكَ تحت رعايةِ أمّكما الحنونة. تلك المرأةُ الطيبةُ التي ملأتْ قلبكَ حنانًا وعطفًا ، كانت السندَ القويّ لكما في رحلةِ الحياة.
ولما علمتْ بخبرِ حبّكَ لتلكَ الفتاةِ الجميلةِ ،
أشرقتْ عيناها فرحًا ، ودعَتْ لكما بالسعادةِ والهناء.
كنت والدتك امرأة هادئة نقية وطيبة القلب مثلك ، لم تشاء

تحزنها و تخبرها بالأمر ، فأخفيت موضوع مرضها عنها كي لا تحزنها ، تعرف كامل المعرفة إنك إن وضعت شئ في رأسك من المستحيل تغيرة ، لذلك لم تخبرها بالأمر، حتي لو رفضت فأنت ستتزوجها ، ستتزوجها بمشيئة الله.

" ٢٩ من شهر نوفمبر ، سنة ٢٠٠٩ ..."

مهما يبوح المرء بما يضطرم في صدره، تبقى ثمة أشياء تتجاوز حدود الكلام ، لتستقر في أعماق النفس ، وتُلتهم الروح صمتًا ....

يُطلّ الفجر من وراء السحب، باسطًا نوره الذهبيّ على الأرض، إيذانًا ببدء يوم جديد. أستيقظ من نومي، أشعر بنشاطٍ يتدفق في عروقي، وأبدأ يومي بروتينٍ مُعتادٍ من غسل الوجه وتناول وجبة الإفطار، أخرج من المنزل، تاركًا ورائي هدوءه ودفئه، لأدخل في غمارِ العالمِ الخارجيّ. أُلقي نظرةً شاملةً على ما حولي، فأرى الناسَ يمضون في حياتهم، كلٌّ منهم يسيرُ على دروبِهِ الخاصّةِ، حاملًا معهُ همومهِ وأفراحهِ وأحلامهِ.

أُشاهدُ عجلةَ الحياةِ تدورُ دونَ توقفٍ، والزّمنَ يسيرُ بخطىً سريعةٍ، كأنّهُ يُناديني بضرورةِ الإسراعِ نحو وجهتي.

أُفكّرُ في موعدِ خطبتنا، الذي باتَ قريبًا جدّا.

كنتُ على علمٍ بمواعيد جميع محاضراتكِ، ولم يكن اليوم، يوم حضوركِ، كنتُ أقفُ بمفردي في ساحة الجامعة، أحسستُ بوجودكِ هنا، فخفق قلبي، ولم تمضِ لحظاتٌ قليلةٌ إلّا ورأيتُكِ أمامي.

سبحان الله الذي ألهم روحي وقلبي إنّكِ هنا. وبينما كنتُ ألقي نظرةً خلفي، رأيتُكِ هنا ، رأيتُكِ تنظرين إليّ وأنتِ مبتسمةٌ ، سرعان ما أخفضتي نظركِ عني، وسرتِ مبتعدةً عني.

فناديتُكِ يا **"شمس".**

فتوقفتِ عن السيرِ ، ونظرتي نحوي ، فرأيتُ لمعاناً في عينيكِ جذبني إليكِ، ودنوت منكِ ، ووقفتُ أمامكِ.

بابتسامةٍ عريضةٍ تنمّ عن حبّي العظيم لكِ، فقد أحببتُكِ من أول لقاءٍ إلى يومنا هذا.

ألقيتُ عليكِ التحيةَ بودٍّ صادقٍ.

لم يكن من السهل وقوفنا هكذا معاً في ساحة الكلية ، لا يعلم أحدٌ أنّ موعد خطبتنا هو مساء اليوم، وأنّ هناك رباطًا يجمعنا، ولا أُحبّذُ أن يتحدث أحدٌ عنّا بسوء.

فمشينا بمحاذاة الطريق لنجلس معاً على المقعد نفسه الذي كنتُ أجلس عليه أراقبكِ بعينيّ في المرة السابقة.

فالحمد لله الذي جمعنا يا حبيبتي هذه المره..

ما إنْ جلسنا على المقعد ، حتى سألتُكِ عن سببِ قدومِكِ

اليومِ ، رددْتِ عليّ: **"إنْ كانَ هناك مشروعٌ لابدّ من تسليمهِ ، قبلَ نهايةِ الأسبوعِ، فقد انتهيتُ منهُ للتّوّ ، وجئتُ وسلّمْتُهُ. وما إنْ رأيتُكَ واقفًا بمفردكَ حتى قادَتْني قدمي إليكَ."**

فتبسمتُ ضاحكًا من صدقِ قولها، لكونها لم تتحججْ وقالتْ الحقيقةَ إنّ قدمها قادتها إليه. فشخصٌ آخرُ قد يكابرُ ويعاندُ. وهنا تأكدتُ من حبّكِ لي، وكم كان حبّكِ هذا عظيمًا في عينيّ.

فقالتِ بحبٍّ: **"إنّني أحسستُ بوجودِكِ ها هنا، وحينَ التفتُّ خلفي رأيتُكِ فلم أُصدّقْ عينيّ."**

تجاذبنا أطرافَ الحديثِ لِبَعضِ الوقتِ ، أنا وأنتِ يا حبيبتي ، فطابَتْ لي كلماتُكِ وعذبَتْ تعابيرُكِ ، وسُحِرْتُ بِبساطةِ أفعالكِ. وحيائكِ يا حبيبتي ، فكلُّ شيءٍ فيكِ يُعجبُني ويُسحرُّني.

انقضى اللقاءُ سريعًا ، فأوصلتكَ إلى وجهتِكِ ، وانطلقتُ عائدًا إلى بيتي لأستعدّ.

حانَ المُساءُ ، كُنا أَنَا وأمي وأُختي جاهِزَين. فجئنا أنا وعائلتي بيتِكُمْ ، وصلنا إلى بيتكم ، فاستقبلنا أهلكم بترحابٍ حارٍّ وكأننا من العائلة. اجتمعنا جميعًا في أجواءٍ يملؤها الودّ والهدوء ، وتبادلنا أطراف الحديث بكلّ ودٍّ ومودة.

وكانَ حَفْلًا بَسِيطًا خاليًا من الْمُوسيقَى الصَاخبةِ.
وقد أهديتُ لكِ أيها العزيزةُ خاتمًا من الماس ، لِما أكنّهُ من حبٍّ لهذا المعدنِ النفيسِ ، وقد نالَ إعجابكِ أيها الكريمةُ ، فزينتِ به إصبعكِ المباركَ.
لقد كانت خطبةً مباركةً، مليئةً بالمشاعرِ الدافئةِ والأجواءِ العائليةِ الحميمة.
في ختام تلك الليلة، اتّجهنا إلى شرفة منزلك الفسيحة، حيث استقرّينا على كرسيين متقابلين.
تحت سماءٍ صافيةٍ مرصّعةٍ بالنجوم، ساد الصمتُ بيننا ، صمتٌ مريحٌ يحمل في طيّاته شتّى المشاعر. شعورٌ عميقٌ بالامتنان يغمرني لوجودك بجانبي ، أغمضتُ عينيّ ، واستنشقتُ هواءَ الليل العليل، ففتحتُها ببطءٍ ونظرتُ نحوكِ ، وقلتُ: **"تعلّمين يا شمسَ إن من أسعد أوقاتي حين أراكِ ، وأتمنّى من كلّ قلبي أن تكوني سعيدةً أنتِ أيضاً."**
رددتِ بعفوية قائلة: **"منذ زمنٍ كأنّهُ أمسٍ ، عَزمتُ على دفنِ مشاعري في أعماقِ قلبي ، صونًا مني لأحاسيسي، لنفسي ولأهلي بسبب مرضي ، فَاعتزلتُ النّاسَ وابتعدتُ عنهم ، لكن عندما دخلتَ حياتي ، اختلف الأمر كثيرًا."**
أخذتِ نفَسًا عميقًا ثم أكملتِ حديثك قائلةً: **"بمعنى أنني أيضًا سعيدة بوجودكَ ، ولستُ خائفة ، بل مطمئنة."**

والَتَقَى ناظرانَا في تلكَ اللحظةِ ، وأنا ما زلتُ خجولًا ، فابتسمتُ لكِ بقلبي وفمي ، وَتَمَنّيْتُ لوْ طالَ اللقاءُ ، وَدامَتْ تلكَ اللحظاتُ الجميلةَ.

في تلك الليلةِ نمتُ قريرَ العينِ مرتاحَ البالِ.

" ٥ من شهر ديسمبر ، سنة ٢٠٠٩ ... "

لَيتَكِ لم تَرحَلي أَبَدًا، لَيتَكِ بِقَيْتِ هُنَا أَمَدًا..

تَذكرتُ يومًا كتَب فيه كتابًا ، فحضرتْني ذكْرى ذاكَ اليوم ، وكان ثاني مرة أدخل فيها بيتكِ يا عزيزتِي ، فصار بيتكِ ملجأ ثانيا لي بعد بيتي ، إلى الآن ، لما فيه من رائحتِكِ وذكراكِ الَتي تشُدنِي إِليهَا شدًّا عَظِيمًا ، حتى صَارَ لِي أُنْسًا وطمأنينَةً ، فَأَحببته حُبا جَما. كنتُ قد اتفقتُ معَ والديكِ من قبلها بِأيامٍ قليلَةٍ عَلَى كتابةِ كتابًا ، لِتصبِحِي حَلَالِي فِي أَقربِ وقتٍ ، وكانتْ هديتي لَكِ في ذاكَ اليوْمِ نقابًا ، لِئلّا يراكِ أحَدٌ غَيْرِي حَتَّى الْمَأْذُونُ ، لِمَا فِي قَلْبِي من غيرةٍ شديدةٍ عليكِ.

رَحبتِ بِهَديتي أَكْبر رِحْبٍ ، فَكَنتِ لِي يومهَا وَكُنتُ لكِ أَبدَ الدَّهْرِ. كم كُنْتِ سَعِيدَةً وقتها ، وكنتُ أَنَا سعِيدًا مرّةً وسعِيدًا أَلف مرّةٍ لسعاَدتكِ تلْكَ.

وفي وقتٍ مَا ببقيَا مُتفردينِ ، أنا وأَنتِ يَا عُمرِي الراحِلُ.

ودارَ حوارٌ بسيطٌ على النحوِ التالِي:

مُحمد : "واللَّهِ ثم واللَّهِ إِني لَمدينٌ لِمُوافقتكِ عَليّا يا شمسٌ."
شَمسٌ : "بلى أَنَنِي أنَا التي أَمتنَّ لكَ لكُل مَا أَشعُرُ بهِ الآنَ ، فَلولَكَ مَا كَانتْ مَشَاعِرِي حيَّةً الآنَ إِلَى هذا الحَد ، ما كنْتُ سمعتُ دقاتِ قَلْبِي ،
فأنتَ منْ أَحْيَا قلبِي وأَنعَش رُوحي وأسعَدَ نفسي."
وما إِنْ أَنهيتَ كلَامَكَ حتى أخذتكِ فِي حضنِي طويلاً لَعَلِّي أُطَمْئِنُكِ ، وَأُطَمْئِنُ قَلْبِي أَنَّكِ أَصْبَحْتِ لِي.
وفي هذِهِ اللحظة ، شعرتُ بِدفءِ جسدكِ يَتَلامسُ مَعَ جَسَدِي، وَبِرِعَشَةٍ خفيفةٍ تَمُرُّ فِي أَطْرَافِي. لَمْ أَعْلَمْ مَا الَّذِي أَحَسَسْتُ بِهِ عِنْدَكَ، لَكِنَّهُ كَانَ شَيْئًا جَمِيلاً وعذبًا فِي آنٍ وَاحِدٍ.
كُنْتِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَكُونِينَ قَرِيبَةً مِنِّي إِلَى هَذَا الْحَدِّ.
ولقَد تَم كُل شيءٍ سريعًا ، حَلَالًا ،
من أَولِ خُطْبَتِنَا إِلَى جُوازنا ، كُلُّ شيْءٍ سَهْلًا مباركاً فِيهِ.
فكأَنهُ قُدر لنا أَن نكُون سواءً ، وَأَنْ يتوحد قَدَرُنَا.
ولا عجبَ ، فَإِن الحُب إِذَا سَكَنَ الْقُلُوبَ لَم يَكُن لهُ مَانِع.
وَلَا حد لسرعتهِ ، ولا حد لبركتِهِ.
ولم أَظُن أَن الحُب يَكُونُ أَجْمَلَ مِمَّا تخيلتُهُ ، فَقَدْ زَادَتْ حَيَاتِي حُلوا وإيمانًا بِهِ.
فالحمْدُ لِلَّهِ الذي جمعَ بَيننا على الخيْرِ.

*****

" ٧ من شهر ديسمبر ، سنة ٢٠٠٩ ...."

السعادة الحقيقية تنبعُ من بساطةِ الأشياءِ ، ومن رضاِ النفسِ بها...

أرادَ الخروجَ سوياً، بعدَ أنْ أصبحتْ حلالَهُ، وإنْ كانتْ هذه أولَ مرةٍ يُخْرِجُا فيها إلى الشارعِ معاً، وهي ملكةٌ مُتَحَلِّلَةً بنقابِها. هو من نفسِ سِنِّها، والعمرُ أَمَامَهُ، شابٌّ طَمُوحٌ ذو أخلاقٍ ساميةٍ، وطَيِّبُ القلبِ إلى حدِّ جعلها تُحِبُّهُ، وقدْ رأتْ فيهِ العوضَ الباقي من عمرِها.

شعرتْ هي بدقاتِ قلبِها تتسارعُ كَصَهَلِ الجيادِ الأصيلةِ، وخجلاً يُغَلِّفُ خدَّيها بلونِ الوردِ الجوريّ، بينما هي تَتَلَفَّفُ بثوبِها الأبيضِ المُطرزِ بخيوطِ الفضّةِ، استعدادًا للخروجِ مع حبيبِها.

كان هو ينتظرُها بفارغِ الصبرِ، عيناه تلمعانِ بِشَوْقٍ وحُبٍّ لا يُوصفُ. وعندما رآها، اتّسعتْ ابتسامتُهُ، وأَشْرَقَ وجهُهُ كَالشمسِ في ضحاها.

مدَّ يدهُ لها، فَوَضَعَتْ يدَها بِرِقَّةٍ في يدهِ، وشعرتْ بِدفءٍ وحنانٍ غامرَينِ قلبَها.

سارا معاً في الشارعِ، يداً بيدٍ،

كَأنّهما كيانٌ واحدٌ.

فَقَلْبُها مُتَحَيِّرٌ بينَ حُبِّهِ لها، وشُعُورِهَا بِأنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ من ذلكَ بكثيرٍ.

لم أجد أفضل من أن نزور بيت جدي، ونجلس في أرض أبي، ونستمتع بجمالِ أرضٍ تُحوي من شتى النباتات، و الونَ الأخضر في كلّ مكان.

ذاهبين سوياً إلى البيت، وجدنا جدي جالساً، وبجانبه جدتي كوجه القمر، فسلّمنا عليهما.

دائماً ما أتي لأَجْلِسَ معهما، وهما من شجّعاني على الزواج منكِ .

بيتٌ على الطراز القديم، واسعٌ وهادئٌ ونظيفٌ، يُشعِرُكَ ببساطةِ الدنيا من حولك، وبالأمانِ الذي افتقده الجميعُ بِالبحثِ عن الأرقى والأغلى والأنسَب، ونَسُوا الأمنَ، وإن كان الأمان هو كلّ شيءٍ بالنسبة لي.

إن أجلسَ مُسترخياً مُتأملاً جمالَ الطبيعةِ الخلابةِ من حولي ، فذلك أفضلُ لي من أن أزور اروع بلدان العالم أفضل لي من زخارف الدنيا بأكملها فأنا شخص بسيط تسعدني الأشياء

البسيطة .

عندما أمسكتُ يديكَ لنعبرَ الطريقَ معاً، ارتعشَتْ يدي عند لمساتها، وارتعشَتْ يدُكَ أيضاً، فكان ذلك أجملَ شعورٍ يمكن للمرءِ أن يُحسّهُ.

وشهدنا معاً غروبَ الشمسِ ونحنُ جالسين على مصطبةٍ بناها والدي بنفسهِ رحمه الله قبلَ سنواتٍ طويلة، وهي بناءٌ مستوٍ بطولِ نصفِ مترٍ. فجلسنا متقاربين، تفصلُ بيننا مسافةٌ لا تزيدُ عن بضعِ سنتيمترات، وتحدثنا بكلّ ما هو جميلٌ، بينما كان صوتُ العصافيرِ يُحيطُ بنا.

وكان وقتُ العصرِ من فصلِ الشتاءِ ، والغيومُ تُغطّي السماءَ، فكان الجوّ رائعاً ، وحبيبتي أروعُ منه.

ما أجملَ أن يكونَ الحبُّ نقيّاً، مُغلفاً بكلّ معنى البساطةِ! .

في تلك اللحظاتِ الجميلة ، نسيتُ كلّ شيءٍ حولي ، لم أُفكّرْ بِالمرضِ ولا بِالموتِ ، ولا بِما يُخبّئهُ لنا المستقبلُ. كلّ ما كان يُشغلُ تفكيري هو أنتِ ، وجودكِ الدافئِ إلى جانبي ، ومشاعري الدافئة نحوكِ.

جاءتْ جدّتي الكريمةُ حاملةً معها بعضَ المخبوزات اللذيذِة ، وصحبتهُ شايٌ باللبنِ الطازجِ ،

وكم كنتُ أُحبّ كلّ ما تصنعهُ بيديها الطيّبتينِ ، من طعامٍ شهيٍّ ، وشرابٍ غنيٍّ ، وحلوياتٍ مُغريةٍ ، فكلّ ما تقدّمهُ لنا

جدّتي هو بمثابةِ هديةٍ من الجنّةِ.

فكم كنتُ أحبّ كلّ ما تصنعهُ جدتي !. وما أعظمَ أن يكونَ المرءُ فلاحًا، يعيشُ حياةً بسيطةً قريبةً من الطبيعةِ، يستيقظُ مبكراً مع شروقِ الشمسِ ليعملَ في أرضهِ المباركةِ ، ويتنفسُ هواءَ الصباحِ العليلَ ، ويَشربُ لبنَ بقراتهِ الطازجِ ، ويأكلُ خضارَ أرضهِ الطيبةَ ، وكلّ شيءٍ بجانبهِ طازجٌ ونقيٌّ وبركّة من اللهِ تعالى.

لولا كوني مهندساً، لَوَددتُ أن أكونَ فلاحاً.

أُشكرُ جدّي على كلّ ما علّمني إيّاهُ، على حبّه للأرض وصبره وجلده. أُؤكّدُ لهُ أنّني سأظلّ وفياً لجذوري، يُشجّعني دائماً على الاستمرار في طريقي، ويُؤكّدُ عليّ أنّ الإنسانَ مهما بلغ من علمٍ وتقدمٍ ، لا يُمكنه الاستغناء عن الأرضِ وخيراتها.

أخبرتها عن نفسي وعن اهتماماتي، فمعظمَ أيامِ الأسبوعِ أقضيها هنا في الأرض، نتناوبُ أنا وجدي على الاهتمامِ بهذهِ الأرضِ ، فأصبحتُ كما ترينَ.

قد أبديتِ إعجابك بها بشدة.

كانت صلاتنا خالصة صادقة ، بحيث لم يعد هناك حاجة للتكلف أو التصنع. فكل ما يخطر ببالنا نتحدث عنه دون خوفٍ من الرأي أو التقيّد بقيود المظاهر الباهتة.

*****

" ٢٨ من شهر أبريل ، سنة ٢٠١٠ .... "

يومُ زفافنا.. يومٌ تَجَلَّى فيهِ الجمالُ في عينيّ.....

يومٌ شاهدت فيهِ الملائكةُ بِزواجِنا ، يومٌ تَساوى فيهِ البدرُ في سَمائهِ ، وَالشمسُ في ضَيائها، وَالوردُ في عَطرهِ، وَاللّيلُ في وَنِسهِ ، يوم رأيتُ لمعان عينكِ بحبي عند حضوري يا من أحببتُ...

كانت بساطةُ حفلِ زفافنا تعكسُ بساطةَ قلوبنا. لم نبحثْ عن الظهورِ أو التباهي ، بل رغِبنا في مشاركةِ فرحتنا مع من نحبّهم ، في جوٍّ عائليٍّ دافئٍ .

أنتِ يا حبيبتي كنتِ كالقمرِ في ليلةِ اكتمالهِ ، من أول ثوبِكِ البسيطِ ، إلى ابتسامتكِ الرقيقةِ ، إلى نظراتكِ العذبةِ ، كلّ شيءٍ فيكِ كان يعبقُ جمالاً ورقةً يأسِرُ القلبَ ويُلْهِمُ الروحَ.

وما إنْ رأيتُكِ حتى ابتسمتُ ابتسامةً عريضةً، غمرتْني سعادةٌ غامرةٌ نسيتُ معها كلّ ما حولي. لم أعدْ أرى سوى جمالكِ الآسرِ، فتقدّمتُ منكِ بخطواتٍ ثابتةٍ، بينما كانتْ عينيّ تراقبانِ كلّ حركةٍ منْ حركاتكِ. شعرتُ بارتباكٍ خفيفٍ، لكنّ

سعادتي كانتْ أكبرَ منْ أيّ شعورٍ آخر .
وصلتُ إليكِ وأخذتُ يدكِ برفقٍ، فشعرتُ بدفءِ يدكِ ينسابُ إلى قلبي. تداخلتْ أصابعُنا في تلكَ اللحظةِ، فكانَ ذلكَ بمثابةِ عقدٍ يربطُ بينَ قلوبنا إلى الأبد.
تبادلنا نظراتِ الحبّ والامتنان، ونطقتُ كلماتِ العهدِ والميثاقِ ، ووعدتُكِ بحمايتكِ ورعايتكِ مدى الحياة .
تلكَ الحياةُ الَّتِي تركْتِها وفارقتيهَا وذهبتِ قبلَ الأَوانِ بِكثيرٍ.
رحمكِ اللَّهُ وأنتِ حَية فينَا مَا حييْنَا.
فقتُ منْ تلكَ الذكرى الجميلةِ ، كأنّها كانتْ حلماً عابراً.
فتحتُ عينيّ ببطءٍ، ونظرتُ حولي ، فلم أجدْكِ يا حبيبتي.
شعرتُ بِفراغٍ كبيرٍ في قلبي، ودمعٌ غزيرٌ سالَ منْ عينيّ.
ليتكِ كنتِ هنا معي الآن، تُؤنسينَ وحدتي وتُخفّفينَ منْ همّي.
مسحتُ دمعي بيديّ، قمتُ منْ على الوسادةِ، رغمَ ضعفِ جسدي وهزالِ قواي، وتوجهتُ إلى شرفةِ السطحِ. وقفتُ هناك، أنظرُ إلى سماءِ الليلِ الصافيةِ .

*****

" ٢٦ من شهر يناير ، سنة ٢٠١١ ...."

يوم مِنْ الله علينا بتوأمينِ ، كأنّهما ملائكةٌ هبطتْ من السماءِ ...

لم يكن أمر الخليفة يهمني ، فَأَنْتِ عَلَى شَفا حفرةٍ منَ الموتِ، و أنَا سَأظلُّ وحيدًا. وجاءَ خَبر حملكِ كَالنجاةِ لِي ، لِكَونهِ سيبقِي شيْئًا منكِ يُذكرُني بِكِ.

كنتُ خائفًا عليكِ من الموت أثناء الحمل ، فكنا سنفقد ثلاثة أرواحٍ لكونكِ حاملًا بتوأم.

كان الخوف يعتصر قلبي مع كلّ ليلةٍ تمرّ. أتأمل بطنكِ المتضخم ، وأداعبُهُ برفقٍ خوفًا من إيذائكِ أو إيذاءِ طفليّنا. لم أستطعْ النومَ إلّا قليلًا، مُنتظرًا بفارغِ الصبرِ موعدَ الولادةِ، خائفًا من كلّ لحظةٍ، مُترقبًا حدوثَ أيّ طارئٍ قد يُهدّدُ حياتكِ أو حياةَ أطفالنا.

وأخيرًا، حانَ موعدُ الولادةِ.

يومٌ مباركٌ أشرقَتْ شمسُهُ حاملةً بُشرى السعادةِ، دخلتِ غرفةَ

المخاضِ، ووقفتُ أنا خارجَ البابِ ، قلبي يكادُ يقفزُ من شدّةِ الخوفِ والتوترِ. لم أسمعْ منكِ أيّ صوتٍ، سوى أنينِكِ الخافتِ من شدّةِ الألمِ. بدا لي الوقتُ كأنّهُ دهرٌ، وفجأةً ، سمعتُ بكاءَ طفلينِ يملأُ المكانَ.

اندفعَ الطبيبُ خارجَ الغرفةِ، حاملًا بينَ ذراعيهِ طفلينِ صغيرينِ ، مُغَطّيينَ بالبطانياتِ البيضاءِ ، نظرتُ إليهما، وبدأتُ أبكي. لقد نجيا! .

لقد نجا أنتِ وأطفالنا! .

شعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ لا تُوصفُ ، ونسيتُ كلّ الخوفِ والألمِ الذي عشتهُ خلالَ الأشهرِ الماضيةِ.

في تلك اللحظةِ ، عرفتُ أنّني لم أعدْ وحديًّا.

حضنتُ الطفلينِ بحنانٍ ، و جئتُ إليكِ في الخدرِ ، كانَ التعبُ بادياً عليكِ، و عيناكِ تلمعانِ بحبٍ، فقبلتُ رأسكِ ويدكِ.

ولم يكن بالمقدور سوى رحمة الله تعالى، فحفظكِ وحفظ ثمرة حُبنَا، و أكرمنَا بِرؤية وَلَدينِ كأنهمَا قمرانِ .

لَمْ أَكُنْ لأُفَضّلَ أَحَدًا مِنَ الْجِنْسَيْنِ، فَكِلَاهُمَا خَلْقُ اللَّهِ.

نما كِليهمَا وكَبرَا ، وَكُلما مرتْ الأَيامُ زاد شبههُمَا بِكِ. أحيانًا أَرَى فِيهِمَا عينيكِ ، وأحيَانًا أَرَى فِيهما بسمتكِ. وكُلما نظرتُ إليهمَا تذكرْتُكِ ، وشعرتُ أَنكِ لَمْ تذهبي بعِيدًا.

" ٢٥ من شهر سبتمبر ، سنة ٢٠١٢ ...."

ولعلمكِ أنَّ أسعدَ أَوقاتِي هيَ أوقاتُ سعادتكِ ،

فسعادتِي منْ سعادتكِ يا حبيبتي ....

ها هو يومكِ الأول كمعيدة في كليتكِ ، بعد أن حظيتِ بشرفِ التعيينِ لشدةِ تفوقكِ العلمي.

ولَمْ يخفَ عليكِ شعوري بالغيرةِ تُلظي كبدِي ، وغيرَةٍ من كُلِّ ذكرٍ ينظُرُ إِليكِ عَلَى وجْهِ الْأَرْضِ ، حتى لَو كَانَت نظرَةً عَابِرَةً لاَ أَكثَر ، وذلكَ رغْمَ كونِكِ مُتنقبةً وأثوابِكِ واسعَةً جِدًّا لا تُبْدي شيْئًا ، إلا أنني أَغَارُ.

فحرصتِ – منْ طيبِ قلبِكِ – على ألا تُحزِنني ، فعرضتِ عليَّ خيارَ تعيينكِ معيدةً ، دونَ نقاشٍ مُسبقٍ ، تاركةً لي حريةَ الاختيارِ بينَ القبولِ أو الرفضِ.

ولم يغِبْ عَنْ عَيْنَيَّ شغفُكِ بالهندسةِ ، ومحبّتُكِ لها، فوافقتُ على طلبِكِ، خاصّةً معَ كثرةِ الفتياتِ في قسمِك ، وقِلَّةِ الشبانِ.

وإيمانًا منّي بسعادتكِ وتوفقكِ.

وها أنتِ اليومِ تبدئينَ رحلةً جديدةً كمعيدةٍ ، لا كمتدرّبةٍ أو كطالبةٍ.
سأروي لكِم تفاصيلَ يومها الأول ، دون رغبةٍ مني في إغراقِكم في التفاصيل لكوني لا أحبها ،
ولكن لِعظمِ مكانةِ هذا الحدثِ في قلبِها وقَلبي، فأنا أُعيدُ الأحداثَ في ذهني لِأصبرَ نفسي على قسوةِ رحيلِكِ.
قد جَرّبتُ معك الأيام و أنتِ طالبة و متدرّبة، و اليومَ أوّلُ لكِ كمعيدة، كنتِ مُختلفةً اليومَ عن باقي أيّامك.
استيقظنا باكرًا ، فعملنا سويًا على إنجاز جميع المهام ، من كل ما يخص المنزل إلى جميع أغراض توأمَنا الرائع، حتى أنزلناهما شقة أمي، وذهبنا معًا بسيارتي.
منذ عرفتُكِ و أنتِ واثقةٌ ، واثقةٌ جِدًّا من نفسِكِ و في ذاتِكِ.
أوصلتكِ إلى مدخل الجامعة ، فنَزَلْتُ من السيارةِ لأَفْتَحَ لَكِ بابَها، وَمَشَيْنا سَوِيًّا إلى مكتبِكِ ، فَجَلَسْتُ معَكِ بعضَ الوقتِ نتحدثُ.
ثم ودَّعْتُكِ وانطلقتُ وجهَ سيارتي ، فَجَلَسْتُ بها إلى حينَ جاءَ الطلابُ ، فَدَخَلْتُ معهمِ إلى القاعةِ الخاصةِ بكِ.
دخلتِ إلى القاعة ، فَذَادَ نَبْضُ قَلْبِي لَمَّا أَبْصَرْتُكِ أَوَّلَ مَرَّةٍ بِخُطَواتِكِ الثَّابِتَةِ واثِقة وهيبةٍ ، فأخذَ نبضُ قلبِي يتصاعدُ كأنهُ طيرٌ محلقٌ في السماءِ، وأحسستُ كأنَّ الدماءَ تغلِي فِي

عروقِي. وحيالَ هذهِ الرؤْيا البهِيةِ، تولد في قلبِي حُب عظيمٌ لكِ، حُب يفوقُ كُل حُبٍ عرفتهُ في حياتِي. وأَفتخرُ بِكِ فَخْرًا عظيمًا، فأنتِ منْ أَفضلِ النساءِ في العالَمِين ، حقا أَنَا مُغرم بكِ.

بدء شرحكِ بطريقة مبسطة ، فقد أبدعتِ في شرحِ المادة العلمية ، بِشكلٍ واضحٍ مُيسّرٍ، ممّا يدلّ على فطنتِكِ وذكائِكِ الفذّ.

كنتُ أُحبّكِ حبّاً غامراً لا مثيل له، ولم أكن أُبالي بأيّ شيءٍ في الدنيا سوى رحيلكِ عنّي. اتّبعتُ شرحكِ باهتمامٍ بالغٍ وشغفٍ عظيمٍ، مُستمتعاً بوجودكِ أمامي. وفي الدقائق الأخيرة قبل انتهاء المحاضرة، توقّفتِ عن الشرحِ فجأةً، ووجهتِ نظركِ إليّ بثباتٍ، فارتجف قلبي وتوقّف عن النبضِ لحظةً. ثمّ ناديتِني فجأةً لأتقدّمَ أمامكِ إلى مكانِ شرحكِ. شعرتُ بخجلٍ شديدٍ ، فأنا خجولٌ بطبعيّ ، وأُحبّ التخفّي وعدم لفتِ الأنظار. تقدّمتُ بخطواتٍ هادئةٍ ثابتةٍ، ووجهي مُتّجهٌ إليكِ وبسمةٌ عريضةٌ تُزيّنُ شفتَي. لمحتُ عينيكِ من تحتِ النقابِ، فوجدتُهما منفتحتينِ قليلاً، ممّا دلّ على أنّكِ تُضْحِكِينَ.

استرسلتِ في حديثكِ بابتسامةٍ مرتعشةٍ شعرتُ بها وأنا أقفُ بجانبكِ، ثمّ قلتِ بحبٍّ: **"هذا زوجي".**

وجهتِ نظركِ نحوي، وواصلتِ حديثكِ بِعَذْبٍ ولينٍ: **"زوجي**

الحبيب، الذي وقفَ إلى جانبي منذ اللحظة الأولى، وظلّ سنداً لي حتى وصلتُ إلى ما أنا عليهِ اليوم. والأعظمُ من ذلكَ أنّه جاءَ اليومَ ليكونَ داعمي ومُؤازِري. ألا تعلمُ أنّني عندما أنظرُ إلى وجهك في الصباحِ ، يملأني ذلكَ القوةُ والثقةُ لمواجهةِ الدنيا بكلّ ما فيها ؟. شكراً لكَ لأنّكَ موجودٌ دائماً من أجلي ".

كنتِ غايةً في التأثرِ، وكانَ ذلكَ بادياً من نبرةِ صوتكِ، وحنانكِ المعهودِ وأنتِ تتحدثينَ ...

لم أصدقْ ما سمعتُهُ منكِ، فارتجفَتْ شفتاي وامتلأتْ عيناي بالدموع من شدّةِ التأثّرِ. لم أتمكّنْ من النطقِ بكلمةٍ واحدةٍ، ولم أدرِ ماذا أقولُ أو أفعلُ. ظللتُ واقفاً أمامكِ، مُذهولاً وسعيداً في آنٍ واحدٍ.

وهنا رفعتُ نظري إلى الجميع ، فرأيتُ على وجوهِهم مزيجاً من المشاعرِ المتباينةِ: الدهشةُ عندَ البعضِ، والانسجامُ عندَ آخرينَ ، ونصفُ بسمةٍ ارتسمَ على شفاهِ آخرينَ ، وسعادةٌ غامرةٌ غمرتْ وجوهَ آخرينَ ممن كانوا سعيدينَ جداً بما يرونَه. وأخيراً، دوّى تصفيقٌ حارٌ في أرجاءِ المدرجِ، عبّر عن مشاعرِ الفرحةِ والبهجةِ التي ملأتْ القلوبَ.

جئتُ ووقفتُ إلى جانبِكِ، وظللتُ أُربتُ على يدكِ بلطفٍ وحنانٍ حتى خرجنا من القاعةِ سوياً.

كان زجاج سيارتي يتمتع بخاصية العزل، بمعنى أنّ من يجلس داخل السيارة يستطيع الرؤية للخارج، بينما لا يستطيع من يقفون خارجها رؤية من بداخلها. وقد حرصتُ على استبداله خصيصاً من أجلكِ ، ليُتيح لكِ الشعور بالراحة والأمان التامين وأنتِ بداخلها.

سِرنا معاً نحو السيارةِ، ففتحتُ لكِ البابَ ودعوتُكِ للدخولِ. لفتتْ انتباهي من ناحيةِ أخرى للطريقِ وردةٌ بيضاءُ ناعمةٌ ، ذاتُ شكلٍ بديعٍ، فاتجهتُ إليها مُسرعاً، ومددتُ يدي وانتشلتُها بأطرافِ أصابعي بلطفٍ وحنانٍ، أهديها لكِ يا وردتي الجميلةِ، تعبيراً عن مشاعري الدافئةِ نحوكِ. فلا عيبَ في صنعِ بعضِ اللحظاتِ السعيدةِ التي تُضفي جمالاً على حياتنا. مددتُ يدي إليكِ وأهديتُكِ الوردةَ برفقٍ وحنانٍ، قائلاً: **"وردةٌ لوردتي الجميلةِ"**. فمددتِ يدكِ الرقيقةَ، فأمسكتِ بيدي والوردةِ معاً، ورفعتِ الوردةَ في يدكِ اليمنى، بينما أمسكتِ بيدي في يدكِ اليسرى. ثمّ رفعتِ يدي إلى مستوى فمكِ، وطبعتِ قبلةً رقيقةً على يدي. ونطقتِ بصوتٍ مُفعَمٍ بالحنانِ والامتنانِ: **"بحبك يا حبيبي، وشكراً لك على كلّ ما تفعله من أجلي. أسألُ اللهَ أن يُرسلَ إليك أياماً جميلةً، كمثلِ كلّ الأيامِ السعيدةِ التي أعيشُها معك"**.

ذابت الأحزان جميعها في تلك اللحظة، تسُرّ عيني برؤيتكِ.

فكيف حالي الآن بعد لمساتكِ وكلماتكِ؟ .

عظيم هو إحساسي الآن وأنا أتذكر ذاك الموقف.

أعلم أن فراقكِ أصعب ما في حياتي. مؤسفٌ للغاية أنني أترحم عليكِ. تخشاكِ رحمة الخالق يا وردتي.

" ٢٨ من شهر يونيو ، سنة ٢٠١٣ ...."

تُسرِعُ بنا الدنيا سرابٌ لاهبٌ، تُغري وتُخادع، ثم تُخَلّفُ الوعدَ الكاذبَ.. يسعى الإنسانُ في غفلةٍ، يلهثُ وراءَ السرابِ، يُجمعُ المالَ، ويُبني المجدَ، ويُطاردُ الأحلامَ العابرةَ.

لكن هيهاتَ!. فكلُّ ما في هذه الدنيا زائلٌ،

لا يبقى منها إلّا ذكْرٌ عابرٌ، وآثارٌ بائدةٌ.

في مقتبل العمر، عند بلوغ الثانية والعشرين، يقف المرء في مجتمعنا الشرقي المتوسط على أعتاب مرحلة مفصلية، مرحلة يُفترض أن تتجلى فيها معالم الحياة وتبدأ ملامحها بالتشكل. أنا أُطلق على هذه المرحلة اسم "سن الحماس الزائد" ، لما تحمله من مشاعر فياضة وطموحات عريضة ورغبة جامحة في تحقيق الذات.

في هذا السن، يودّع المرء مقاعد الدراسة حاملاً معه شهادةً

تُمثل مفتاح المستقبل، تاركاً وراءه مرحلة التعليم لينتقل إلى رحلة جديدة مليئة بالتحديات والتجارب. يبدأ في هذه المرحلة ببلورة أفكاره وتحديد أهدافه، ساعياً جاهداً لتحقيقها بكل ما أوتي من قوة وإمكانيات.

تتعدد تطلعات الشباب في هذه المرحلة، وتتنوع مساراتهم، فمنهم من يسعى لبناء عشّ الزوجية وتأسيس أسرة، ومنهم من يبحث عن وظيفة مناسبة تُتيح له الاستقرار المادي وتحقيق طموحاته المهنية، ومنهم من ينطلق في رحلة البحث عن شغفه وملاذه في الحياة.

يُعدّ "سن الحماس الزائد" مرحلةً مليئة بالحيوية والنشاط، حيث يغمر الشباب طاقة هائلة ورغبة عارمة في خوض التجارب واكتشاف آفاق جديدة. إنّها مرحلة مثالية لوضع الخطط وتحقيق الأحلام، بفضل ما تتمتع به من حماس وشجاعة وقدرة على التغلب على العقبات.

ولكن هُنا في مصْر ، يلزمُ وسطه لكيْ تحقق أَي حُلْمٍ ، حتى لو كُنتَ أكثر منْ يستحقهُ ، يلزمُ وسَطه ، لا وَسَطه لا تَحْقِيقُ أَهْدَافِ في وطننا هذا.

أسوأُ الأزمنة!.

أيتها الدّهورِ العاتية!.

لقدْ جئتِ بِما لمْ يُرَهُ الأولونَ ولا الآخرونَ ، فاختلطتْ فيها

المقاديرُ ، وصارَ الصغيرُ كبيرًا والكبيرُ صغيرًا ، وتسلّطَ الجاهلُ على العالمِ ، وتاهَ نجمُ الفضلاءِ ، وارتقى الأدنياءَ إلى أعلى المراتبِ.

أسوأُ المشاعر! .

أن يصبحَ مصيري في يدِ من لا يعرفُ قدْري، وأن أنامَ خائفاً من أن أُمسي ومنزعجاً من يومي ومتحسراً على ماهو آت!!!

أيتها الأوطانُ البائسة!. لقدْ أضمرتِ الحقدَ على أبنائكِ ، فبخلْتِ عليهم بساعةِ صفاءٍ بعدَ عُمرٍ مُضنًى، ورميتِهم في بِحارِ اليأسِ والقنوطِ.

أيتها الشّعوبُ المُهانة!.

لقدْ أُحيطتِ بِالنيرانِ من كلّ جانبٍ، فلمْ تُحرّكي ساكنًا، وتهاوتْ عليكِ النكباتُ من كلّ مكانٍ، فلمْ تُبدي أيّ مقاومةٍ، وسُلّمْتِ زمامَ أمورِكِ للشّرّ، فسيطرَ عليكِ، وتسلّطَ الصغارُ عليكِ، فاستسلمتِ لهم، وذُبحَ فيكِ الشرفاءُ كلّ يومٍ، فلمْ تُبدي أيّ شعورٍ بالألمِ أو الحزنِ.

لقدْ ضاعتْ معالمُ الخيرِ، واندثرتْ مكارمُ الأخلاقِ، وسادَتْ الأنانيةُ والطمعُ، ونسى الناسُ معنى التعاونِ والتآخي.

لقدْ أصبحَ الدّهرُ جاهليًا مُظلمًا، لا نورَ فيه ولا أملَ، ولا يُنيرُهُ سوى شعلةُ الأملِ التي نُحاولُ إشعالَها في قلوبِنا، ونُؤمنُ بِأنّ

الخيرَ سينتصرُ في النهايةِ ، وأنّ الظّلمَ لنْ يدومَ إلى الأبدِ.

« و أظنّ أنَّ كلّ ذلك يحدثُ في هذا الدّهرِ البائسِ الذي نعيشُهُ ، فنحن نعيشُ أشدّ عصورِنا عَهْرًا وانْحِطَاطًا. »

"١٢ من شهر أغسطس ، سنة ٢٠١٣ ...."

كنتَ دائمًا بقربكِ لقدومِ وقتٍ لاحقٍ لم تكنْ هنا بقربِي ....

في إحدى زياراتنا لطبيبتكِ المختصة ، بينما كانت تُمعن النظر في صور الأشعة لِدماغكِ ، لاحظتُ على محياها نظراتٍ غريبةٍ ممزوجةً بالريبة والشكّ. تجمدتْ أنفاسي في صدري ، وأمسكتُ يدكِ بقوةٍ غريزية، وشعرتُ وكأنّ خيوط الخوف تُخنقني. لم أتمكنْ من تخيّل فكرة فقدانِكِ، وحتى الآن، لا أزالُ عاجزًا عن استيعاب فكرة موتكِ.

كنتُ أعلمُ أنّني لا أستطيعُ فعلَ أيّ شيءٍ بمفردي. كنتُ بحاجةٍ إلى إيمانٍ أقوى من إيماني ، وإلى قوةٍ أكبر من قوتي. ولذلكَ ، لجأتُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى، خالقِ الكونِ وخالقهِ، راجيًا منهُ أن يُشفِيكِ ويُزيلَ عنكِ كلّ ألمٍ وبلاءٍ.

دعوتُ اللهَ من أعماقِ قلبي، وناشدتُهُ أن يُحفظَكِ لي ويُبقيكِ بجانبي. وجعلتُ ثقتي بهِ أكبرَ من أيّ خوفٍ أو قلقٍ يُسيطرُ عليّ.

كانت لحظةُ طمأنة الطبيبة لنا بمثابةِ شمسٍ ساطعةٍ أشرقتْ على ظلمةِ خوفي. لقد كانت من أسعد اللحظات التي منّ الله عليّ بها، شعورٌ لا يوصفُ بالكلمات.

مزيجٌ من الفرح والامتنان والحبّ لكِ يا عزيزتي.

وَلَمَّا نزلنا من العيادةِ معًا ، ظللتُ ممسكًا بيدكِ خوفًا من اختفائكِ المفاجئ. ففي جميع مراحلِ عمري كنتُ أخشى الفراقَ ، فراقَ زملائي في آخرِ فترةٍ من كلِّ مرةٍ ، فراقَ الأشخاصِ والأماكنِ، الطرقاتِ، الأشياءِ كلَّ ما كنتُ أصنعُهُ أو أشاركُ فيهِ، فيصيبُني بعضَ الأحيانِ في جوفي وصدري شعورٌ باختناقٍ رهيبٍ. فما باللكِ وأنتِ زوجتي وحبيبتي؟ .

إنّ فكرة فقدانكِ تُمَثّلُ لي الموتَ بعينهِ ، ولا أُطيقُ أن أُفكّرَ في يومٍ أُصبحُ فيهِ وحيدًا دونَكِ.

صدقيني، إنَّ الأمرَ أصعبُ بكثيرٍ مما يُكتبُ أو يُحكى.

أعانَها محمدٌ على النزولِ من سَلَمِ البناءِ ، وحَمَلَ عنها حقيبةَ يدِها التي كانتْ بحوزتِها ، وسارَ ممسكًا كفَّها حتى سيّارته.

فصعدتْ هي ثمّ صَعِدَ بجانبِها ، وأدارَ محرّكَ السيّارةِ ، فانطلقوا إلى البيتِ.

دخلوا شقّتَهم، فأقبلَ هو عليها ، وحثّها على التحدّثِ.

وبدأ هو بالحديثِ ، أرادَ أن يخفّفَ عنها بمزحهِ.

فقالَ لها: **"يا شمس ، أتعلمين أنّكِ محظوظةٌ لمعرفتكِ متى**

يحين لقاءكِ عكسَ جميعِ البشرِ؟".

ابتسمت شمسٌ بخفّةٍ، مُحاولةً إخفاءَ مشاعرِها المُضطربةِ،

وردّتْ عليه قائلةً: **" بلى أنني أنا المحظوظة لكونك ها هنا سندِي الدائم و داعمي".**

نظرَ محمدٌ إلى شمسٍ بنظرةٍ عميقةٍ، كأنّهُ يقرأُ في عينيها سِرًّا دفينًا ، وقالَ لها بصوتٍ هادئٍ: **"أرى في عينيكِ يا شمسِ شيئًا مُضطربًا ، أخبريني ما يُؤرقكِ؟ ".**

وتنفستْ شَمس تَنَفُّسًا ثَقِيلًا ، كَأَنَّ صَمْتَهَا قَدْ حَبَسَ أَنْفَاسَهَا ، ثُم قَالَتْ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: **"أَخَافُ يَا مُحَمَّدُ ، أَخَافُ مِنَ الْمَجْهُولِ، مِنْ أَنْ يُفَرِّقَنَا الْقَدَرُ يَوْمًا مَا عَنْ قَرِيبٍ ، أنا وأنت ، يَؤْلِمُنِي إِنْ يكبرَ أَبنَائي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ ، وَأَحْزَنُ لِتَرْكِ أَبِي وَأُمِّي ، كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَظَلَّ مَعَكُمْ حَتَّى نَشِيبَ سَوِيًّا".** ابتسمَ محمدٌ ابتسامةً صادقةً ، مُطمئنًا إيّاها ، وقالَ: **"واللهِ ، ما أدري متى يَأتِي أوانُ لِقائِكِ ، أدامَ اللهُ عُمرَكِ بِقَدْرِ ما أحبُّكِ."**

ضحكَ شّمس ضحكةً صادقةً، وقَالَتْ: **"هكذا لن أموت أبدًا."**

فَقَالَ لَهَا مُحَمَّدٌ بِصَوْتٍ حَنُونٍ: "لَيْتَنِي أُقْدِرُ عَلَى أَنْ أَهَبَ لَكِ عُمْرِي فَوْقَ عُمْرِكِ ، وَلَا أُبَالِي بِمَا أَفْقِدُهُ."

كنتُ جالسًا على الأريكة ، وأنتِ جالسةٌ على كرسيٍ مقابلي، فجأةً جئتِ من خلفي فقبّلتِ رأسي واحتضنتِني.

هُنَاكَ أشياءً تمنيْتُ لو تدومُ أَبَدًا كمثلِ هذه المواقِفِ ، كَمَثَلِ وُجُودكِ وَحُبّكِ وَحَنَانكِ اللامتناهي.
تخشاكِ رحمةَ الخالِقِ يا حبيبَتِي.

" ٢٥ من شهر ديسمبر ، سنة ٢٠١٣ ... "

بلابلُ فؤادي تَحِن إلى لُقياكِ يا حبيبتي، كأنّها طيرٌ شَجِيٌّ يهفو إلى وُكْنِهِ ...

أنهيتُ عملي في ذلك اليومِ باكراً، وفي نفسي أردتُ أن أصنعَ لكي شيئًا مختلفًا اليومَ. ركبت سيارتي وذهبتُ إلى متجر الزهور.
تجولتُ بين أرجاء المتجر، أُشاهدُ الأزهار بألوانها الزاهية وتشكيلاتها البديعة. لفت انتباهي عطرُ الياسمين الفوّاح، فاقتربتُ من باقةٍ رائعةٍ منه. تذكرتُ كم تحبين رائحة الياسمين، فقررتُ شراءها لكِ.
غادرتُ متجر الزهور وبيدي باقةُ الياسمين،
وكان بجانبه متجر لبيع الحلويات، فلم أتردد في الدخول إليه.
انتابني شعورٌ بالحيرةِ أمام تشكيلةِ الحلوياتِ المتنوعةِ، لكن سرعان ما لفت انتباهي قالبٌ من الشوكولاتةِ الداكنةِ المُزيّن جميلةٍ. تذكرتُ كم تُحبّين الشوكولاتة، فقررتُ
بزخارفَ شراءَ هذا القالبِ لكِ.

حملتُ باقةَ الياسمينِ وعلبةَ الشوكولاتةِ، وضعتهم بحرص في السيارة، وانطلقتُ مسرعاً إلى منزلنا.

حدثتُكِ هاتفياً لأطمئنّ عليكِ وأعرفِ أين أنتِ الآن.

أخبرتِني أنّ أمامكِ ساعتين من الزمنِ فقط قبل أن تُنهي عملكِ.

أنهيتُ المكالمةَ وصعدتُ درجاتِ سلمِ المنزلِ مسرعاً.

فتحتُ بابَ شقتنا، ودخلتُ المطبخَ.

لم أكن أعرف ماذا سأطبخُ، لكنني أردتُ أن أُحضّرَ لكِ شيئاً لذيذاً يُسعدُكِ.

طبقاً سهلَ التحضيرِ لا يتطلبُ الكثيرَ من الوقتِ والجهدِ.

اخترتُ بعضَ المكوناتِ البسيطةِ من الثلاجةِ، وبدأتُ الطهيَ.

لم أكن واثقاً من قدراتي في الطهيِ، لكنني بذلتُ قصارى جهدي.

شعاعٌ من شمسِ الشتاءِ الدافئةِ يتسللُ عبر نافذةِ المطبخِ، ويلقي بظلالهِ الراقصةِ على طاولةِ الطعامِ.

وبينما أنا منهمكٌ في إعداد الطعامِ، تزينُ شفتيّ ضحكةٌ عريضةٌ، تملأُ قلبي فرحاً ، شعورٍ عميقٍ بالرضا يغمرُ قلبي.

أُدركُ أنّني أُقدّمُ لكِ شيئًا بسيطًا، لكنّهُ مُعبّرٌ عن كلّ مشاعري.

أُريدُ أن أُسعدَكِ، وأن أُدخِلَ البهجةَ إلى قلبكِ.

بعدَ مرورِ ساعةٍ تقريباً، كان الطعامُ جاهزاً.

نظرتُ إلى الطبقِ، ولم أكن متأكّداً ممّا إذا كان يبدو شهياً أم لا.

لكنني قررتُ أن أُقدّمهُ لكِ على أيّ حالٍ.

وبينما أُعدّ طاولةَ الطعامِ، فوجئتُ بِكِ تقفين أمامي.

ابتسامةٌ عريضةٌ رسمتْ على شفتيكِ، وعيناكِ تُشعّانِ بسعادةٍ وفرحٍ.

لم أتوقّع وجودكِ في هذا الوقتِ، لكنّني سُرّرتُ جدّاً برؤيتكِ.

تذكرتُ أنّني كنتُ سأُحدّثكِ هاتفياً لِأعرفَ كم بقي من الوقتِ على عملكِ، لأذهبَ لأخذكِ.

لكنّ وجودكِ هنا يُغنيني عن كلّ اتصالٍ هاتفيّ.

ضحكتِ كثيراً عندما رأيتِ شكلي وشكلَ الطعامِ.

لن أنسى أبدًا كم ضحكتِ في ذلك اليومِ.

وكم كنتِ رقيقةً وخجولةً في جميع تصرفاتكِ!!.

لكنّكِ تذوّقتِهِ على أيّ حالٍ، وأخبرتِني أنّه لذيذٌ.

قدمتُ لكِ الوردَ والشوكولاتةَ، تعبيراً عن حبيّ ومشاعري الدافئةِ نحوكِ.

ابتسامةٌ جميلةٌ ارتسمتْ على شفتيكِ، وعيناكِ بَريقَهما ازدادَ، فرحةً وسعادةً بهذا الهديةِ البسيطةِ.

أخذتِ الوردَ والشوكولاتةَ من يدي بلطفٍ، ووضعتِهما جانباً.

ثمّ اقتربتِ مني، ووضعتِ ذراعيكِ حولَ رقبتي، وجذبتِني

إلى حضنكِ الدافئِ.
كم تمنّيتُ لو أنّ عقاربَ الساعةِ تتوقّفُ عن الدورانِ، وتبقى هذه اللحظاتِ الجميلةَ معي إلى الأبدِ! .

لن أنسى شعوري بالحُب، بالأمان، وبكِ أيضًا، لقد شعرتُ بكِ هُنا.. هُنا بداخل قلبي.
تمشينا تلك الليلة في الشارع، هواء الشتاء البارد يلامس وجوهنا، والغيوم تُغطّي سماءَ الليلِ بِسوادٍ حالكٍ.
في تلك الليلةِ الشتويةِ الجميلةِ، سِرنا معاً في شارعٍ هادئٍ، يلفّنا سكونُ الليلِ وهدوءُهُ.
كان هواءُ الشتاءِ الباردِ يلامسُ وجوهنا برفقٍ، والغيومُ تُغطّي سماءَ الليلِ بِسوادٍ حالكٍ، لا يُنيرُهُ إلّا ضوءُ القمرِ الخافتِ الذي كان يتسلّلُ من بينِها.
أمسكتُ بيدكِ الناعمةِ، وشعرتُ بدفءِها يُلامسُ يدي، فأرسل في جسدي شعوراً بالراحةِ .
دارَ بيننا حوارٌ بسيطٌ، لكنّه كان مُعبّراً عن صدقِ حبّنا.
قالتِ شمسٌ بِصوتٍ رقيقٍ: **"يا محمداً، يكفيني وجودكَ بجانبي و في قلبي، فلا شيءَ في هذه الدنيا يُسعدني بقدرِهِ."**
رددتُ عليها بِكلماتٍ صادقةٍ من القلبِ:

"حين رأيتُكِ تضحكين يا شمسٌ، زالتْ عنّي جميعُ أحزاني، ولم أعدْ أُفكّرْ إلّا في سعادتكِ."

ورحل هذا اليوم كما رحلتِ أنتِ ...

"١٩ من شهر يناير ، سنة ٢٠١٤ .... "

لم أَكُن لأتحمَّلَ فِكْرَةَ غيَابِكِ وَأَنْتِ حَيَّةٌ ، فَمَا بَالُكِ وأَنْتِ ميتَةٌ؟ .

يُقال أنّ العادة أقوى من الحبّ ، وأنّ الفطام أصعب من الولادة. وصدق من قال، فكم من علاقاتٍ تُسْلِكُ بنا دروبًا لا نملك منها خلاصًا ، وكم من قيودٍ تُكْبِلُ حريتنا وتُعَثّرُ خطواتنا.

تُجسّدُ حكايةُ شمسٍ معنى هذه الكلماتِ بِأبلغِ ما يكون. فقد أرادت شمسٌ ، بِكُلّ ما في قلبها من حبٍّ ، أن تبقى معي إلى الأبد. ولكنّ القدرَ قسا عليها، ونازلها أقسى معاركه ؛ معركةُ المرضِ الخبيث.

في كلّ جلسةٍ من جلساتِ العلاجِ الكيماوي ، تُحسّ شمسٌ بِضعفٍ جديدٍ يطرقُ جسدها ، ويُثقلُ روحها. وتزدادُ صعوبةُ البقاءِ مع حبيبها يومًا بعد يومٍ ، بينما يزدادُ حبّها لهُ عمقًا وقوّةً.

تُصارعُ شمسٌ في داخلها صراعًا مُضنيًا. فمن ناحيةٍ ،

تُحبنيّ ، ولا تتحمّلُ فكرةَ الفراقِ عني. ومن ناحيةٍ أخرى ، تُدركُ أنّ بقاءها معي قد يُشكّلُ عبئًا علي ، ويُعيقه عن العيشِ بِحياةٍ طبيعيةٍ خاليةٍ من القلقِ والألم.

تتخبّطُ شمسٌ في حيرتها، تبحثُ عن حلٍّ يُرضي قلبها ويُريحُ ضميرها. فهل تُكملُ مسيرتها معي ، مُتحمّلةً مخاطرَ ذلك على صحّتها وعلى مستقبلهما معًا؟ .

أم تُضحي بِحبّها من أجلِ سعادتي وراحتي؟ .

لا تملكُ هذه الكلماتُ إجابةً حاسمةً على سؤالِ شمسٍ.

فقرارُها هو قرارٌ شخصيٌّ بحت ، يعتمدُ على عواطفِها وقناعاتِها وظروفِها الخاصّة.

هكذا عاشت "شمس" رحلتها ، أسيرةً لعلاقةٍ لا يمكن الاستغناء عنها، اعتادت عليها، بل أدمنت وجودها. فبات التخلي عنها أشبه بفقدان جزء من الروح ، وبدأت تعاني من اختناقٍ دائمٍ يُهدد كيانها.

لقد تغيّر حال شمس بعد عودتنا من إحدى جلسات العلاج الكيمياوي ، تحوّلٍ غريب طغى على روحها المشرقة. فبدلًا من ابتسامتها الدائمة وإقبالها على الحياة ، غمرتها غيومٌ من العَصَبيّة وضيق الخلق.

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها شمس حزينةً مكتئبة ، عكس طبيعتها المعهودة.

لم أَطِق رُؤْيتها هكذَا ، فَابتعدنَا عن ضجيج الأَطْفَالِ وجلسنَا نتحدثُ فِي خلوَةٍ.

تحدثتِ إِنْك مخنوقةً وتردينَ الذهابَ إِلى بيتِ أَهْلِكِ.

كانت شمس مرهقة، وذلك واضح على وجهها. لم أتمكن من رفض طلبها ، فأوصلتها إلى بيت أهلها.

طوال الطريق ، لم نتحدث ، كنتِ صامِتةً تمَامًا ، وَهَذَا أَكْثَرُ مَا يُقلقُنِي.

وعندما وصلنا إلى منزل والدكِ ، فتحتِ باب السيارة وانطلقتِ مسرعةً ، وعندما وصلتِ إلى بوابة المنزل ، توقفتِ قليلاً ، وأشرتِ بيدكِ مُودعةً إيّايَ ، هكذا ببساطةٍ انقضى الأمر ، لم احتمل فكرةَ بُعدِكِ عَني ، يومًا أَوْ ساعةً أَو ثانيةً أَوْ حَتَّى لَحْظَةً ، ففتحتُ بابَ السيارةِ وجئتُ إِليكِ مُسرِعًا ، وأخذتكِ في حضنِي.

وضممتُكِ إلي بكل قُوتي ، كَأَنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أُدخلكِ فِي جسدي وَألصقَكِ بِرُوحي.

وكأنني أريدُ أن أَمنعَ الزمنَ منَ المضيّ قدُمًا. لَمْ أَعد أسمعُ أصواتَ الشّارعِ ، ولا أرى الأنوارَ الوامضةَ من حولي ، شددْت عَلَى حضْنِها بين شهقاتِ دمُوعها ، ودّعتني شمس ، وصَعَدْت درَجاتِ سُلَّمِ البنَاءِ. بَقِيْتُ وَحِيدًا ، أَتَأَمَّلُ أَثَرَ خُطَاهَا عَلَى الأَرْضِ ، خُطَواتي وأنا أَمْشِي عَائِدًا ، كَأَنَّنِي أَحْمِلُ عَلَى

ظَهْرِي ثقل الدنيا. ففتحتُ بابَ سِيارتي ، وانطلقتُ في شوارِعِ المنطقةِ. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تغيب عني بعد دخولها حياتي.

وإنّ في القلبِ هوًى لا يُفارقه ، ووصلًا لا ينقطع، وحبًا لا يزول ، وأنسًا لا يتغير ، وقيدًا لا يُفكّ.

وإنّ البعدَ عنكَ لشديدٌ ، كأنّه فقدٌ للقلب ، وضيقٌ للصدر، وظلمةٌ للعين.

فكيف السبيلُ إلى الفراق؟. وأين المفرّ من هذا القيد؟.

في تقاطع بلدتَينا ، بلدتِي وبلدتِها ، كان هناك حي يُسمّى حيّ الأشجار ، لكثرة الأشجارِ فيه.

منطقةٌ بحريّةٌ ، يأتي الهواءُ من كلّ جانبٍ ، وهناك مقاعدٌ كثيرة في تلك المنطقة.

أبطأتُ سرعةَ السيّارةِ ، ونزلتُ منها ، وقعدتُ على أحدِ تلك المقاعدِ.

كانت الساعةُ العاشرةَ مساءً ، ولم يكن هناك أحدٌ.

أغمضتُ عينَي ، وتنفسْتُ الهواءَ العليلَ بِمَلءِ صدري.

وَقَضَيْتُ اللَّيْلَ كُلَّهَ جالسًا على هذا المقعدِ ، أَتَذَكَّرُ كُل لحظةٍ قضيْتُها مَعَ شمسٍ.

كنتُ غارقًا في أفكاري ، بعيدًا كلَّ البعدِ عن الواقعِ ، حتى جاءني اتصالٌ ، فإذا هيَ!.

كانت الساعةُ تشيرُ إلى الثالثةِ قبلَ موعدِ أذانِ الفجرِ.
أخذتُ الهاتفَ بِيدٍ مرتجفةٍ ، ووضعتُهُ على أذني.
جاء صوتها حزينًا مشتاقًا.
شمس: ما هذه السرعة في الرد ، أنتَ ما زلتَ مستيقظًا؟.
محمد: وكيف لي أن أنام وأنتِ لستِ في الجوار؟.
شمس: وكيفَ يكون الحالُ عندما أرحلُ عن الدنيا؟.
محمد: سيكون أشبهً بالقتلِ.
شمس: ليتنا لم نلتقِ أبدًا يا محمد ، فلقاءُنا لم يجلب لَكَ سوىّ الهمّ والألم.
محمد: لا تقولي ذلك ، يا شمسَ عُمرِي. فالنهاياتُ واحدَة ، لَكِنَّ الْبَدَايَاتِ لَمْ أُحِبَّ أَكْثَرَ مِنْهَا. بدايتكِ أنتِ لا تُقارنُ بأيّ بدايةٍ أخرى ، وَلَطَالَمَا النَّهَايَاتُ وَاحِدَةٌ ، فَهَنِئًا لِقَلْبِي لِكَوْنِهِ نالكِ ، لَكن فراقكِ سيكونُ الفارِقَ.
سَتَنْتَهِي الدُّنْيَا فِي عَيْنَيَّ صَدِّقِينِي ، سَيَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ.
وَبَيْنَمَا أُكملُ كَلِمَاتِي جَاءَ صَوْتٌ مِنْهَارٍ مُبَحْحُوحٍ.
شمس: كفى ... كفى!.
لا أُحتملُ سماعَ كلامتِكَ ، أشعرُ بالاختناقِ من حزني عليكَ ، شعورُ الفقدِ لا يُطاقُ ، أُشاركُكَ أَلمكَ بِكُلّ جَوَارِحِي.
وأغلقتِ الهاتف فجأة.
فنهضتُ من مكاني بعد جلوسي عليه ما يقارب خمس

ساعاتٍ دون شعورٍ مني بتعبٍ أو ألمٍ ، فألم قلبي أكبر من أي ألمٍ جسدي.

أدّرتُ محرّك سيارتي وانطلقتُ مسرعاً نحو منزلكِ ، لا أطيقُ فكرةَ أنْ تُغمِرَكِ الدموعُ وحدكِ.

لا تفصلُ بينَ منزلنا ومنزلِ أهلكِ إلّا نصفُ ساعةٍ ، ولم يمضِ على انطلاقي من مكاني سوى ثماني دقائقَ حتّى وصلتُ إلى عتبةِ منزلِ والدكِ.

قطعتُ المسافةَ بسرعةٍ فائقةٍ ، كأنّني أُسابقُ الريحَ ، خوفاً من أنْ تُطيلَ عليكِ لحظةُ الحزنِ.

اتّصلتُ بكِ وأخبرتُكِ أنّني أمام المنزل ، وطلبتُ منكِ أنْ تخرجي إلى شرفةِ غرفتكِ ، كي لا تنزلي من بابِ الشقةِ وتُزعجي اي أحدَ من أفرادِ عائلتكِ.

كان منزلُكِ يقعُ في منطقةٍ معزولةٍ قليلاً عن باقي المنازلِ ، يحيطُ بهِ خلاءٌ واسعٌ لا يُرى فيهِ أيّ شيءٍ ، خرجتِ من شرفةِ غرفتكِ ، وشعركِ مرسلٌ دونَ حجابٍ أو نقابٍ يُغطّيهِ.

كنتِ ما زلتِ معي عبر الهاتف.

شمس: أين كنتَ يا محمد في هذا الوقت المتأخر من الليل؟.

محمد: لم أشأ دخول المنزل وأنتِ لستِ فيه ، فكنت جالساً في أحد الإمكان.

شمس: كل هذا الوقت! ، والبرد!.

محمد: لا تُكترثي لأمري ، أخبريني كيف حالكِ الآن؟.
أما زلتِ تبكينِ؟.
شمس: وكيف أَبكي بعدَ كُل مَا تفعلُهُ من أجلِي ،
تعرفُ يا مُحمدًا ، تثبتُ لي في كل مرة أن خطوة الزواج منكَ لم تكن خطأً ، وإن كان الزواج في هذا المرض العسير أمرًا صعبًا. فليس لديّ ذرةُ ندمٍ على ذلك ، بل أنتَ جديرٌ بكل ما في هذه الدنيا ، وأنتَ رجلٌ بمعنى الكلمة.
محمد: أنتِ تستحقين الدنيا بأسرها يا شمس ، لو كان بيدي لأعطيتُكِ عمري ولم أُبالِ.
شمس: تعلَمْ يا مُحمدًا ، أنني اشتقتُ إِليكَ شوقًا عظيمًا ودعوتُ اللَّهَ في داخلي أَن أركَ أَمَامَ عَيْنِي الآن وها أَنتَ ذَا ، فالحمْدُ لِلَّهِ الذي مَنَّ عَلَيَّ بِرؤيتكَ في هذا الوقت.
كنتِ في شرفتكِ تنظرين إليّ ، وأنا أقفُ أمام سيارتي. كنا بعيدين كل البعد جسدًا ، لكننا قريبين كل القرب روحًا.
لم تمضِ ثوانٍ قليلةٌ ، حتى تركتُ هاتفي على السيارة رفعتُ ذراعيّ وفتحتُهما كأنني أحتضنكِ ، وفعلتِ أنتِ مثلي. احتضنّا بعضنا البعض عن بعد ، وصلني صوت ضحكتكِ مع صوت الهواء العليل ، فطمأن قلبي ، ووصل ضحكنا من تلك الفعلةِ الجميلةِ. كان احتضانًا افتراضيًا ، لكنّه كان حقيقيًا بمشاعرهِ ودفئهِ.

فأذنَ المؤذنُ للصلَاةِ ، فودعتكِ وانطلقتُ بعد وعدكِ لِي أَنَّكِ ستأتي معي عِنْدَ العاشرةِ صباحاً .

" ٨ من شهر فبراير ، سنة ٢٠١٤ ... "

لا يُدرك المرء قيمة الشيء إلا بعد أن يفقدُه ...

أُحبّ الهدوء وسكون النفس بعيدًا عن ضجيج الدنيا وصخبها وحواراتها. واليوم ، كنتُ جالسًا مع صديقي الملازم لي كالظلّ، صديقي الذي أُؤتيه الخيرَ من نفسي وأزيده. لا أُطيقُ الحديثَ عن سواه. فهو رفيقي في كلّ خيرٍ وضدّي في كلّ شرّ. يجمعنا التفكيرُ وإنْ خالفنا في التدبير. لا يخطر على بالي أحدٌ غيره في الشدائد. نجلسُ ساعاتٍ دون مللٍ ، وإنْ كان كلّ ما حولنا مملًا. تسعدُ روحي عند رؤيته، وأبوحُ له بمكنونِ نفسي كأنّه الدنيا بأسرها ، ترتاحَ روحي عند حضوره ، انطوائي يمنعُني من الاطمئنانِ إلا بوجوده ، وهو كذلك، وهذا ما يجمعُنا.

اليوم ، كنا جالسين في مقهى ما ، فانضمّ إلينا رجلٌ قريبٌ من صديقي ، أظنّه في مثل عمره أو يكبره قليلًا.

كان صاحبي قدْ أوشكَ على خطبِ فتاةٍ ، فجرى الحديثُ عن الزواجِ وأمورهِ.

فإذا بهذا الرّجلِ يقاطعُنا قائلاً: "أَصْغِ إليّ يا صاحبي ، وَأَصْغِ بِعقلِكَ وقلبكَ ، فأنا أَتكلمُ إليكَ من قَعْرِ حُزنٍ لا يُطاقُ ، وَألمٍ لا يُوصفُ ، أنصحك بالعثورِ على امرأةٍ تُشْبِهُ روحكَ ، امرأةٍ هادئةٍ نقيّةِ الجوهرِ، لا امرأةٍ تُغْرِي بِمَظْهَرِها، وَتُخْفِي وراءَهُ قسوةَ القلبِ وَسوادَ النّفسِ !!.

تَثَقّلُ كاهِلِيَ أَحمالُ العَيشِ معَ هَذِيَ المرأةِ الّتي حَوّلتْ جَنّةَ الدّارِ إلى جحيمٍ لا يُطاقُ. أَتَذَكّرُها؟. تلكَ التي تَتَسَلّحُ بِلسانِها الحادّ كَالسّكينِ ، وتحملُ في قَلْبِها قسوةَ الحجارةِ؟.

أَلاَمْ تَرَ كيفَ تُحَوّلُ أَدقّ تفاصيلِ حياتِنا إلى مَسرحٍ لِلدّراما؟ . تُكبرُ الأخطاءَ ، وتَخترعُ العيوبَ ، وتَتَفنّنُ في جَعْلِ كلّ لحظةٍ جحيمًا.

وليس ذَللك بكل شيءٍ ، فَهِيَ لا تكتفي بِإشعالِ الحربِ في الدّارِ، بل تسعى جاهدَةً لسلبني كُل إنجازٍ، وكل فرَحٍ. فَكُلما حققتُ شيئًا ، تقلصتْ أَفراحُها ، وكثرت تعقيداتُها.

ولا تظنن أنّني أَتكلمُ بِمُبالغةٍ ، فَأَنَا أعيشُ معَ هذهِ المُتجبرةِ منذ سنواتٍ ، وقد صبرتُ على أَذَاها حتّى كادَ الصّبرُ ينفَدُ. وَلَيْسَ أَكْثَرَ مِنَ الْخِلافاتِ الّتي تنشبُ بينَنا بِدَوْنِ سَبَبٍ لِتُثبتَ لِي مَنْ هِيَ السّيّدةُ المُطلقةُ في هذا البيتِ. فَكُلّما أَحاولُ التّفاوضَ ، تَصِلُبُ في مَواقِفِها ، وَتَتَمَسّكُ بِرَأيِها كأنّهُ وَحْيٌ مُنَزّلٌ.

وَلَيْسَ غريبًا أنْ تَنْتَصِرَ في كُلّ خِلافٍ ، فَهِيَ لا تَتَورّعُ عنْ استِعْمالِ كُلّ الأسلحةِ المُحَرّمةِ ، مِنَ الصّراخِ وَالْعَتابِ ، وَالتّهديدِ وَالوعيدِ ، وحتى التمثيلِ والتباكِي.

فَكَيْفَ يُمكنُني أنْ أَنتَصِرَ أمامَ هَذِهِ العاصفةِ الّتي تُحَوّلُ كُلّ حوارٍ إلى ساحةِ قتالٍ؟

أَنا أَتَسَاءَلُ بِكُلّ مرارةٍ: مَتى تَنْتَهي هَذِهِ الْمُعاناةُ؟ مَتى أَعِيشُ في كَنَفِ الرّاحةِ وَالسّكينةِ معَ عائلةٍ بَنَيْتُها على أُسُسٍ منَ الحبّ وَالمُوَدّةِ؟

أَلا يَكْفِيهَا ما أَقاسَيتُهُ منَ الأَذى؟ .

أَلا تَتَحَلّى بِبعضِ الرّحمةِ وَالمُشاعِرِ الإنسانيةِ؟

أَنا أَفْقِدُ الأملَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَتَخوّفُ منْ أنْ أَفْقِدَ عقلي وَصَحّتي بِسَبَبِ هَذِهِ الْحياة ألا تعلمونَ أنّ الدّنيا ليست حربًا تُخاضُ لِلهزيمةِ أو الانتصارِ؟ .

فليسَ الفوزُ في الزّواجِ أن تُهينَ طرفكَ الآخرَ، أو تُلحقَ بهِ الأذى. بلْ هوَ أن تُسعدَهُ حينَ يحزنُ، وأنْ تُؤنسهُ حينَ يُوحشِهُ الوحدةُ.

لا أنْ تُسعدَ نفسكَ على حسابِهِ ، فتجرحَ مشاعرهُ وتُؤذي روحهُ.

وأعلم أنّه لا كمال في البشر، وأنّ لكلٍّ منّا عيوبه ونقاط ضعفه.

ولكنّ الحبّ الحقيقيّ هو أن تقبلَ شريكَكَ بكلّ ما فيه ، مع عيوبه ونقاط ضعفه ، تمامًا كما تقبلُهُ في أوجِ سعادتهِ وقوّته.

فلا تجعلْ عيوبهُ سببًا في جرحهِ أو إيذائهِ ، بل اجعلها فرصةً لتُظهرَ لهُ حبّكَ ودعمكَ له.
ساعدهُ على التغلّب على نقاط ضعفهِ، وكنْ سندًا لهُ في رحلةِ حياتهِ.
تذكّرْ دائمًا أنّ الزّواجَ رحلةٌ مشتركةٌ ، وأنّكما في هذهِ الرحلةِ شريكانِ لا خصمان.
فلا تُقاتلْهُ ، بلْ ساعدهُ ، ولا تُحاربهُ ، بلْ اهتمّ بهِ.
فليكنْ زواجُنا كَحديقةٍ غنّاءٍ ، نُنبتُ فيها بذورَ الحبّ والمودةِ، ونُرويها بماءِ التّفاهمِ والتّسامحِ.
ونُحيطَها بسياجٍ منْ الاحترامِ والتّقديرِ،
فنحميها منْ رياحِ الخلافِ والنزاعِ.
ولنجعلْ منْ بيتنا مأوىً دافئًا ، يملؤهُ دفءُ المشاعرِ،
ويضيئهُ نورُ السّعادةِ.
ففي ظلّ هذهِ الرّعايةِ ، ستزهرُ حديقةُ زواجنا،
وتُثمرُ ثمارًا طيّبةً منْ الودّ والوئامِ .
ففي الزّواجِ السّعيدِ ، تكتملُ السّعادةُ في الدّنيا ، وتُصبحُ الحياةُ جنةً على الأرضِ.

والله إني تقبلتها كثيرًا ، لكنها كل يوم تزداد سوءًا ، وليس من طبعي أن أتحدث عنها أمام أحد بسوء ، ولكنها المرة الأولى، وإني نادم نادمًا جدًا.

وإنّ في قلبي لَجرحًا عميقًا لا يداويه إلاّ رضاها ، وحبّي لها يزداد كلّ يومًا ، كالنار المُشتعلة في الصدر.

وخارت قواه ، وانهالت دموعه مدرارًا على خده.

فما زاد الأمر إلاّ سوءًا ، فبادرتُهُ بالمواساة ، وقلت له: **"لا تُحزن ، ولا تَقنطْ من رحمة الله ، فما أصابكَ لم يكن ليُخطئك ، وما أخطأكَ لم يكن ليُصيبك. فَلْتَصبرْ، ولْتَحتسبْ ، ولْتُؤمنْ بالله ، فَإنَّهُ مع الصابرين."**

وَقُلْتُ لَهُ أيضًا: **"إنّ هذه الدنيا دارُ ابتلاءٍ وفناءٍ ، وليست دارَ قرارٍ واستقرارٍ. فما أصابتكَ مصيبةٌ إلاّ لِتُكفّرَ بها ذنبًا ، أو لِتُرفعَ بها درجةً."**

وَأَضَفْتُ: **"وَلْتَعْلَمْ أنّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الصابرينَ ، ويُجْزِيهم أَجْرًا عظيمًا. فَلَا تَيْئَسْ ، ولا تَكْسَلْ ، وَاصْبِرْ على ما أصابَكَ، وَافْتَحْ صفحةً جديدةً مع زوجتكِ ، بَنِيّةً على الصّدقِ والصّفاءِ والمَحَبّةِ."**

فَسَكَنَتْ نفسُهُ قليلًا ، وَعَلِمَ أنّ اللهَ تعالى معهُ ، وأنّهُ لن يُضيّعهُ أبدًا.

أدركنا عمق حزنه، فحاولنا بكل ما أوتينا من لطفٍ ومودةٍ أن

نُخففَ عنه وطأةَ الأمر، ونُغيرَ مجرى الحديثِ لِيُصبحَ أكثرَ إيجابيةً وتفاؤلاً. فبدأنا نتحدثُ معه عن أشياءَ أخرى تُسعدُهُ وتُشيعُ في نفسهِ البهجةَ والسّرورَ.

تذكرنا معه بعضَ المواقفِ المضحكةِ التي مررنا بها، وناقشنا بعضَ الموضوعاتِ التي تُثيرُ اهتمامَهُ وتُشغلُ تفكيرَهُ.

كما حرصنا على الاستماعِ باهتمامٍ إلى ما يقولهُ ، وإظهارِ تعاطفِنا معهِ ومشاركتِهِ مشاعرهُ. فكنا نُصغي إليهِ بِصمتٍ، ونُومئُ برؤوسِنا تأكيدًا على فهمِنا وتقديرِنا لما يقولهُ.

وبفضلِ اللهِ تعالى ، نجحَ مسعانا في تخفيفِ حزنهِ ، وإعادةِ البسمةِ إلى وجههِ. فبدأ يتحدثُ بِرُوحٍ معنويةٍ عاليةٍ.

أدركتُ في هذا اليومِ عظمَ قدرِكِ ، وعلمتُ يقينًا أنّكِ خيرُ نساءِ العالمين.

فما رأيتُ منكِ من صفاتٍ حميدةٍ وخلالٍ كريمةٍ لم أرَها في امرأةٍ أخرى.

" ٩ من شهر سبتمبر ، سنة ٢٠١٤ ...."

يوم رحيلكِ إلى جوار ربكِ ....

في سكونِ الفجرِ الباكرِ، جلستُ أتأملُ وجهَها الحسنَ وهي نائمةٌ غافيةٌ لا تدري ما يُحيطُ بها من همٍّ وأسى.

كان وجهها يفيضُ جمالاً ونورًا، وكأنّ الملائكةَ قد هبطتْ من السماءِ لتُزيّنَهُ بِبريقِها. وشعرُها الأسودُ ينسدلُ على كتفيها كالشلالِ ، ورموشُها الطويلةُ تُخفي عينيها الجميلتينِ.

دعوتُ لها من كلّ قلبي، خاشعاً للهِ مُتضرّعاً، أن يحفظَها ويُسعدَها ويُبعدَ عنها كلّ سوءٍ.

شعرتُ بانقباضٍ في صدري، كأنّ شيئاً يُخبرُني أنّ هذهِ الليلةُ ليست كأيّ ليلةٍ أخرى.

نظرتُ إليها وهي نائمةٌ، وتذكّرتُ جمالَها وخيرَها وطيبَ قلبِها، فكأنّها لم تكن من طينِ الأرضِ، بل كانت كأحدِ الملائكةِ المُنزلِ من السماءِ.

أحسستُ أنّ هذهِ الليلةُ هي ليلةُ الفراقِ، وأنّني لن أراها بعدَها أبدًا.

قضيتُ تلكَ الليلةَ كلّها ساهراً بجانبِها، لا أستطيعُ النومَ من شدّةِ الخوفِ والقلقِ.

منذ يومينِ لم أنمْ ، فكنتُ مرهقاً للغايةِ ، لكنّني لم أُرِدْ أن أنامَ في تلكَ الليلةِ ، فكأنّني أُريدُ أن أُخلّدَ كلّ لحظةٍ أقضيها معها.

بينما كنتُ أقرأُ في كتابِ اللهِ، سمعتُ صوتَها الحنونَ يناديني:

"محمد".

اقتربتُ منها على الفورِ، وجلستُ بجانبِها على السريرِ.

سألتُها : **" ما بكِ يا حبيبتي؟. "**

رفعتْ ذراعها بِرقةٍ، مُشيرَةً إلى أنّها تريدُ منّي أن أُعانقَها.

اقتربتُ منها على الفورِ، وضممْتُها إلى صدري بقوّةٍ.

بكتْ بصمتٍ على كتفي، ولم تنبسْ ببنتِ شفةٍ.

ظلّتْ تربتُ على كتفي و ظهري وقالتْ بصوتٍ خافتٍ:

"أدعو اللهَ لكَ يا محمدَ أن يُسعدَكَ ويُحفظَكَ من كلّ سوءٍ".

تأثّرتُ كثيراً من كلماتِها المُخلصة ، وقلتُ لها والدمعٍ في عيني: **"وَأَنْتِ يا حبيبتي، أَدْعُو اللهَ لَكِ**

يطِيلُ عُمْركِ ويُديْمُكِ أَعظَمَ النعَمِ فِي حَيَاتي".

من بين دموعها، نطق لسانُها بكلماتٍ ممزوجةً بالحزنِ والشوق: **"يا حبيبي ، أردتُ أن أعيش آخر لحظاتٍ في هذه الدنيا معكَ ، وها قد حظيتُ بهذه الأمنية !!.**

أنتَ الآن بجانبي ، وأما أولادنا أذانٌ و أستبرق ، فأنا واثقةٌ

من أنهم في عِينِ اللهِ ورعايته، وبجوارِكَ يا حبيبي، ولن يمسّني القلقُ على تربيتهم.

لكنّ ما يُثقلُ قلبي هو تأثير غيابي على حياتهم في جميع مراحلها. كم تمنّيتُ لو بقيْتُ لأجلكم جميعاً ،

ولكنّها مشيئةُ اللهِ ، وإذا جاءَ الأجلُ لا مفرّ منه "..

شعرتُ بدموعِها تُبلّلُ قميصي، فزادَ حزني وأساي.

مسحتُ دموعَها بِرفقٍ، ونطقْتُ بكلماتٍ مُتقطّعةٍ من شدّةِ التأثّرِ: **"لا تبكي يا حبيبتي، ستعيشينَ طويلاً، وسنكونَ معاً إلى الأبدِ".** هزّتْ رأسها بِأسى، وقالتْ بصوتٍ خافتٍ كأنّه همسٌ من الريحِ: **"لا يا محمدَ، أشعر بأنه حانَ أَوَانُ الرَّحِيلِ مِنْ هَذَا المَكَانِ. حانَ وقتُ الفراقِ. استودعك اللهُ من لا تضيع ودائعهُ".**

ظلّتْ مُضمّنةً إلى صدري لوقتٍ طويلٍ، وكأنّها لا تُريدُ أن تُفارقَني.

ضمّمتُها إلى صدري بقوّةٍ أكبرَ، وكأنّني أُريدُ أن أُخلّدَ هذه اللحظةَ في ذاكرتي.

تَتَردّدُ كلماتُها الأخيرةِ في أُذْني ، وتَتَردّدُ في جوفي ، كأنّها صدىً لا يَزولُ.

تَقولُ: **"لا تَبتئسْ، يا حبيبي، فأنا هنا معكَ ، أُحاطُ بكَ منْ كُلّ جانبٍ ، وأَعيشُ في قلبِكَ ، إنْ كُنْتَ تَدْرِي."**

إلى إن فارقت الروحُ الجسدَ ،الوجهُ أبيضُ كالياسمينِ، دمعُ الوداعِ في عينها .

حينَ يُدرِكُ العقلُ أقصى ما يَستطيعُهُ من الفهمِ،

ويَتَعَثّرُ في إدراكِ المزيدِ ، يَتوقّفُ كُلّ استيعابٍ، ويَغْشى الظلامُ كُلّ ما حَوْلَهُ.

فَأَحْسَسْتُ بِبُرْدِ الموتِ يَتَسلّلُ إلى أطرافي، وكأنّني أُغْرِقُ في بحرٍ منْ الأحزانِ.

وَأَسْودّتِ الدُّنيا في عينَيّ، وَفَقَدْتُ الإحساسَ بِكُلّ شيءٍ حَوْلي.

إلاّ صوتَها الرّقيقِ يُنادي بي منْ بعيدٍ: **"لا تفزعْ ، يا حبيبي، فَإِنَّنا سنلتقي مرّةً أخرى في جَنّاتِ الخُلدِ ، حيثُ لا فراقَ وَلا حُزنَ."**

وَأَخيرًا ، غَشَتْني الظُّلْمَةُ ، وَفَقَدْتُ الوعي تمامًا.

لَمْ أَعْلَمْ كمْ مَرَّ منْ الوقتِ وَأَنَا في هذهِ الحالَةِ ، حَتّى أَفَقْتُ على صوتِ البكاءِ يملأُ المكانَ.

فَتَحْتُ عيني بِصعوبةٍ ، فَإذَا بي أَرى وجوهَ أَهْلِي وَأَقاربي مُحاطينَ بي يبكونَ ويَندبونَ.

عَلِمْتُ حينَها أنّكِ يا حبيبتي قدْ فارقتَ الحياةَ إلى الأبدِ ، وَأنّني سأعيشُ بقيةَ حياتي بِدونكِ.

كُنْتُ راضيًا بِقَدَرِكَ ، يا حبيبتي ، حينَ كُنْتِ معي.

وَأَمَّا الآنَ ، فلستُ راضيًا.

أُمي وأُختي جالستينِ بجانبي ، ولا زلتُ لا أَعي شيئًا سوى أنّني لن أَراكِ ثانياً.

أعلمُ أنّكِ في رحابِ اللهِ، في دارِ خيرٍ من دارِنا ، في كنفِ اللهِ آمنةٌ مطمئنّةٌ.

أحتسبُكِ عندَ اللهِ يا كلّ الخيرِ، وأدعو اللهَ أن يجزيكِ خيرَ الجزاءِ.

ستبقينَ خالدةً في قلبي ، حاضرةً في روحي ، لا تُفارقينَ ذاكرتي أبدًا.

مشهَدُكِ كَانَ مَهِيبًا يليقُ بعظمةِ شخصكِ ، صَغِيرًا وَكَبِيرًا يَبْكِي ، وكأنّ الطبيعةَ كلها قد شاركتنا في حزننا عليكِ ، حَتَّى صَوْتُ الْعَصَافِيرِ يُودعُكِ ، جنازتُكِ يا حبيبتي كانَ عَدَدُ النَّاسِ لا حَدَّ لَهُ.

حضرَ أيضًا عددٌ كبيرٌ من طلابِكِ الذين عرفوا فضلكِ عليهم، وشهدوا عظمةَ عطائكِ ، لم يمنعهمْ البُعدُ أوْ المشقةُ من الحضور ، في وجوهِهِمْ عبراتُ الحزنِ ، وفي عيونِهِمْ دموعُ الفقدِ، كأنّ كلّ طالبٍ منهمْ قد فقدَ أمًّا حانيةً ومعلّمةً صبورةً وصديقةً مخلصةً.

لم يقتصرْ تأثُّرُهمْ عليكِ كمعلّمةٍ فقط، بل تأثّروا أيضًا بشخصيتكِ العظيمةِ وأخلاقكِ الكريمةِ ، فكنتِ لهمْ قدوةً يُحتَذى بها ومثالًا يُسْعَى لبلوغهِ.

وكنتِ أَصْلَحَ صَدِيقَةٍ وَأَوْفَى رَفِيقَةٍ ، لَا أَتَذَكَّرُ يَوْمًا مَرَّ عَلَيَّ بِلَا دَعْمِكِ وَتَشْجِيعِكِ للجميع.

أولى ساعاتِكِ في قبرِكِ جَلستُ معكِ لموعدِ أذانِ المغربِ وإنْ كنتِ ترينني من مقعدٍ غيرِ مقعدي فأنا أراكِ بعينِ قلبي ، فسأسْتَأْنِسُ بِكِ وأحدثكِ ها هنا بعيداً عن الدنيا.

أغمضتُ عينيّ يا حبيبتي ، وسرحتُ بخيالي في عوالمَ لا حدودَ لها ، عوالمَ تُضمّكِ بينَ طيّاتها ، وتُحيي في قلبي ذكرياتِنا الجميلةِ معًا.

بدأتُ أتحدثُ إليكِ ، أخبرتكِ عن كلّ ما حدثَ في يومي ، من أوّل موتكِ إلى دفنِكِ ، أَفئدة مُثقلَةٌ بِالحُزنِ والغم ، وَأَعْيُنٌ تَهْرِقُ الدَّمْعَ سَيْلًا ، وَأَصْوَاتٌ تَتَحَدَّثُ بِالْهمسِ والكتمانِ ، وَأَنَّات تَتَصَاعَدُ إِلَى السَّمَاءِ ، ودمُوعٍ تَسْقِي الْأَرْضَ من شدَّةِ حُزْنِي.

هكذا كَان حالُنَا يَا حَبِيبَتِي في أَولِ أيامِ وفَاتِكِ.

الآنِ استريحي في سلامٍ أبديّينَ ...

دفنْتُكِ في بلدِكِ ، كما أوصَيْتِ ، وفاءً لِانتمائِكِ لها ، وحُبّكِ الشّديدِ لها. مساء تلك الليلة ، كنتُ في عالمٍ آخر ، بعيداً عن ضجيج الدنيا وصخبها.

في تلك اللحظات ، لم أكن أشعر بوجودي في هذا العالم المادي.

كانت روحي تائهةً في ملكوت الله، أجلسُ على سريري،
مُثقلًا بِفقدانِ عزيزٍ عليّ ،
أُذرفُ دموعَ الحزنِ على فراقِ أبسطِ الأشياء.
فما حالي إذا كانَ الفراقُ قد طالَ أعزّ الناسِ وأغلى الأحبّة؟.
غمرتني غفوة عميقة ، لم أُدرك فيها شيئًا ، لم أشعر بوجودي
أو بمرور الوقت ، وكأنَّ غشاءً من السكون قد غطى روحي.
لكن سرعان ما تسللت إلى هذا السكون آلام الفقدان الجلل ،
رويدًا رويدًا ، مع كل حدث يمرُّ دون وجودكِ بجانبي.
في أحلامي ، رأيتُ نفسي معكِ في الفراغ ، نمسكُ بأيدينا
بإحكام ، وكأنَّنا نُحاولُ التشبث ببعضنا البعض خوفًا من
السقوط إلى القاع. سعيتُ بكلِّ ما أوتيتُ من قوةٍ لمنعكِ من
السقوط ، شددتُ على يدكِ بكلِّ قوتي ، وشجّعتُكِ على
الصمود، وكنتُ مستعدًا للسقوط خلفكِ إن لزم الأمر.
لكنَّ قيودًا غامضةً كبّلتني ، لم أستطعُ الهبوطَ خلفكِ، وشعرتُ
بألمٍ حادٍّ في يدي ورأسي. فجأة ، أفقتُ من غفوتي ، ووجدتُ
نفسي مُمددًا على السرير ، مددتُ يدي على الفراش ،
أتحسّسه وأبحثُ عنكِ ، لكنّني لم أجدكِ.
أدركتُ حينها أنّ ذلكَ كانَ مجرد حلمٍ ، وأنّكِ لستِ معي.
سأكتفي بهذا القدرِ من الكتابةِ اليوم، فلن أستطيعَ وصفَ مدى
شعوري يومَ الفقدانِ وما أصابَني من ألمٍ وحزنٍ .

" ٣ من شهر سبتمبر ، سنة ٢٠١٤ ...."

أين المفرُّ من هجعةِ الفقدِ ؟.

تتسللُ خيوطُهُ الداكنةُ رويدًا رويدًا ، وتخنقُ كلَّ شعلةِ أملٍ في القلب ...

أطلّ عليّ فجرٌ حزينٌ في ثاني يومِ رحيلكِ ، حاملًا معهُ ثقلَ غيابكِ الفادحِ ، فلم أتمالكْ دموعي ، وغمرتْني ذكرياتُنا الجميلةُ كشريطِ سينمائيٍّ قديمٍ.

تذكرتُ يومَ لقائِنا الأولِ ، وكأنّهُ كانَ بالأمسِ فقط. تذكرتُ ضحكتَكِ المُعديةَ ، وكلماتِكِ الرقيقةَ ، ونظراتِكِ الحانيةَ التي كانت تُذيبُ قلبي.

أُصبحُ الصباحُ كئيبًا ثقيلًا ، وأُصبحُ المساءُ موحشًا قاتمًا ، وفجأةً، لمعتْ في ذاكرتي كلماتُكِ الأخيرةُ ، ووصيتُكِ التي أوصيتني بها قبلَ رحيلكِ .

تذكرتُ قولكَ عن شيءٍ خبّأتهُ لي في أحدِ أدراجِ مكتبي، وأوصيتني إلا أفتحهُ إلّا بعدَ رحيلكِ .

استبدّ بي الفضولُ فورًا، فتوجهتُ إلى مكتبي ، وفتحتُ الدرجَ الذي ذكرتيَهُ.

فوجدتُ فيه صندوقًا خشبيًا صغيرًا مُغلقًا بإحكامٍ.
أمسكتُ الصندوقَ بيديّ المرتجفتين، وفتحتهُ ببطءٍ.
فُوجئتُ بما وجدتُهُ بداخلهِ ، كانَ داخلَ الصندوقِ كتابٌ قديمٌ مُغبرٌ ، غَطاؤُهُ من الجلدِ البنيّ ، مُزخرفٌ بزخارفَ ذهبيةٍ جميلةٍ.
فتحتُ الكتابَ بفضولٍ، وبدأتُ أقرأُ ما فيهِ.
فإذا بهِ عبارةٌ عن مجموعةٍ من رسائلكِ لي ، كتبتِ فيها عن مشاعركِ وأفكاركِ ، وآمالكِ وأحلامكِ .
بكيتُ بحرقةٍ وأنا أقرأُ رسائلكِ .
سأقصُّ عليكم بعضًا من الرسائلي ، و رسائل أخرى ستبقى دفينةً في أعماقِ قلبي ، لا أستطيعُ أن أبوحَ بها لأحدٍ .
كنتِ امرأةً شامخةَ الذاتِ ، متقبّلةً دائمًا للوضعِ ، راضيةً وحكيمةً ، يشهدُ اللهُ أنني كنتُ من أنسندُ عليكِ في لحظاتِ مرضكِ ، لا العكسِ.
سأروي لكم عن شجاعةِ الفرسانِ في المعاركِ ،
وعن حكمةِ الشيوخِ في المجالسِ ،
وعن جمالِ الطبيعةِ في مختلفِ المواسمِ.

أوّلُ رسائلكِ ...

« مُوتِي قادمٌ وَنَفْتَرِقُ يا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى رُوحِي ، نَفْتَرِقُ دُونَ وَدَاعٍ حَقِيقِيٍّ يَا أَحَنَّ رِجَالِ الْعَالَمِينَ في عيني .

من ديارِ الخلودِ حيثُ لستُ أُسمعُ صرخاتِ الفراقِ ، ولا أشعرُ بِوَخزِ الوداعِ.

أعلمُ أنَّكَ تبكي الآنَ على فِراقِي ، فَلِمَ تَحزَنِ على منْ لقي رَبّهُ راضيًا مُسَلّمًا ؟.

لطالما كنتَ صادقًا ونبيلًا في مشاعركَ.

وإنْ غابَ صوتي ولم تسمعْ مناد يتذكرْ أنّ حبي لكَ باقٍ لا يزولُّ ، سأظل أُراقبكَ من علياءِ السماءِ ، أُنيرُ دربكَ بِضوءِ الحُبّ وَأُزيلُ عنْ قلبكَ غمامَ الحزنِ ، روحي ستكونُ معكَ دائماً يا حبيبي ، بينما جسدي سيستقرُّ في القبر... فلا تحزنْ يا حبيبي على فراقِنا فإنَّ الموتَ ليسَ نهايةً بلْ هو بدايةٌ جديد ، سنلتقي فيها ثانيةً في جنةِ الخلدِ ، حيثُ لا فراقَ ولا دموعَ ولا ألمَ ».

ثاني رسائلكِ ...

« كفّي عن البكاء، فدموعكَ كانت أثمنُ ما في دنياي، وستكون أصعب ما أُلاقيه عند مماتي.

منذ أوّل يوم رأيتُكَ فيه ، شعرتُ بشيءٍ غريبٍ لم أُعرفه من قبل نوع مختلف جداً من الأمانِ والطمأنينةِ لم أُحَسّهما طوالَ حياتي.

لم أكن أطمحُ لشيءٍ في هذه الحياة ، كنتُ أشبه بجثةٍ هائمةٍ على وجهِ الأرضِ، تنتظرُ الموتَ ، لكنك جئتَ وجعلتني أشعر بالحياة ، وها أنا الآن أرحل تاركه لكَ شعورًا أشبه بالموت. »

ثالث رسائلكِ ...

« لو كنتُ أعلمُ أنّ فراقي سيخلّفُ كلّ هذا الأثر، واللهِ ما اقتربتُ منكَ قطّ.

في وقتِ كتابةِ هذه الرسالة، كنتَ جالسًا بجانبي، لكنّكَ لم تُدرِكْ ما يدورُ في خاطري. وكنتُ أدارك ما يدورُ خاطركَ و قلقَكَ الدائمَ عليّ، وتبحثُ عن أيّ أملٍ يُنيرُ لي طريقَ النجاةِ من مرضي العضال.

كنتَ تعلمُ أنّ نسبةَ النجاةِ قليلةٌ جدًّا، وأنّ الموتَ هو المصيرَ الأكثرَ ترجيحًا.

رغمَ علمكَ بِقربِ النهاية، لم تُظهرْ أيّ علامةِ خوفٍ أو يأسٍ. حافظتَ على هدوئكَ وصبركَ، لتُخفّفَ من وطأةِ هذا الواقعِ المُرّ عليّ. لكنّني، في المقابل ، كنتُ أعاني من صراعٍ داخليٍّ هائلٍ. لقد غزاني الحزنُ واليأسُ ، وبدأتُ أتساءلُ عن مستقبلكَ بدونِي.

لكنّكَ لم تُدرِكْ أنّني أعرفُ ما تفكرُ فيه. أعرفُ ذلكَ من

نظراتِ عينيكَ ورعشاتِ يديكَ. لا حاجةَ لكلماتٍ بيننا ، يا اللهُ، كمْ هو قاسٍ هذا الشعورُ !!.

لَيتَ المرضَ لم يُصِبْني لِيُبْعِدَني عَنْكَ كُلَّ هذا البُعْدِ
لَيتَ المرضَ فَارقَ جَسَدِي وَلا فَارَقَتْهُ رُوحي
نَظَرَاتُكَ إِلَيَّ الحَزِينَةُ قَدْ جَعَلَتْ بِدَاخِلي شَفَقَةً عَلَى نَفْسِي
وعَنْ عُجْزِي وَعَنْ أَلَامِي وَوَجَعِي ، رَغْمَ حَدِيثِكَ لِي
وأَنْتِ تُخْبِرِينِي بالقُوَّةِ وَالشفَاءِ ، لَكِنْ عَيْنَاكَ لا تَكْذِبَ
لَيْتَنِي رَحَلْتُ قَبْلَ أَنْ أَلْتَقِي بِكَ وَأَحْمِلَكَ عَنَاءً فَوْقَ عَنَائِكَ.. »

رابع رسائلكِ ...

« لو عددتُ صفاتكَ الحسنة يا محمداً ، لما استطعتُ إحصاءها ، لكنّي سأكتبُ إليكَ اليوم عن أكثرُ مَا فيكَ مِنْ صفاتٍ تمُس رُوْحِي هُوَ حيَاءُكَ ولَيْنُكَ فِي مُعاملتي ، كَأَنني فراشةٌ رقِيقَةٌ تخشَى أَنْ تهبَّ يدكَ هبَّةً فجأَةً فَتوْذيهَا.

فيا حبيبي، إنّكَ لَتُجسّدُ في أخلاقكَ أروعَ ما في الإنسانيةِ من صفاتٍ، فأنتَ حليمٌ صبورٌ كريمٌ عطوفٌ، لا يصدرُ منكَ قولٌ جارحٌ ولا فعلٌ مؤذٍ، بل تُعاملُ الجميعَ بِلينٍ ومحبةٍ، كأنّهم من أهلكَ ودمكَ.

وإنّي لأشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ عندما أكونُ معكَ، فأنتَ تُشعِرُني بالأمانِ والاطمئنانِ، وكأنّني أقفُ تحتَ ظلالِ شجرةٍ وارفةٍ تُحيطُ بي من كلِّ جانبٍ.

فَهَنِيئاً لِي بِكَ ، وَهَنِيئاً لَكَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ النَّبِيلَةِ يا

محمداً. »

خامس رسائلكِ ...

« وبعد سنينٍ من الآن...

هل ستذكرني؟ .

يَقُولُونَ إنَّ في الرّحيلِ نسيانًا، فهل ستنساني؟ .

أَعْلَمُ أنَّ لا سَبِيلَ لنسياني.

لكنّ قلبي يَتَمَسّكُ بالأملِ أن تبقى شُعلةُ ذِكرانا متّقدةً،

وأن تَحفرَ كلماتي أثرًا عميقًا ،

في ثنايا روحكَ لا يمحوهُ الزّمن.

وبعدَ سنينٍ من الآن ،

حينَ يتغيرُ الزّمانُ ، وتتقلبُ الأيامُ ،

هلْ ستظلّ صورتي حاضرةً في ذاكرتكَ؟ .

أخشى أن تذوب صورتي مع كلّ موجةٍ تمرّ بِكَ الأيّام،

وتتلاشى ذكرياتنا كَأوراقِ الخريفِ تذروها الأنسام.

هلْ ستتذكّرُ لحظاتِنا الجميلةَ معًا؟ .

هلْ ستتذكّرُ ضحكاتنا، ودموعنا، وأحاديثنا الطويلة؟ .

أَعْلَمُ أنَّ الحبّ الحقيقيّ لا يُنسى،
فَهلْ ستظلّ تحبّني بعدَ كلّ هذه السّنين؟ .
أَعْلَمُ أنَّ المسافاتِ لا تُفَرّقُ بينَ القلوبِ المُتَوَسّلةِ،
فهلْ ستظلّ تفكّرُ بي، وتشتاقُ إليّ، على الرغمِ منَ البُعدِ؟ .
أَعْلَمُ أنَّ الرّحيلَ قد يُؤدّي إلى النّسيانِ في بعضِ الأحيان،
لكنّني مُؤمِنُة بأنّ حبّنا أقوى منَ النّسيانِ.
فَأرجوكَ، لا تنسَني.
أَخَافُ أَنْ تَنْسَى وَتَبْقَى ذِكْرَاهُ تَحْكِي لَحْظَةً مَا وَيَنْقَضِي الأَمْرُ.
أرجوكَ، احفظْني في ذاكرتكَ،
أخشى أن تُصبحُ حكايتنا مجرّدَ سطورٍ في كتابٍ قديم،
تُقلبُ صفحاته الأيّام، وتُطويها في طيّ النّسيان.
وَأُسْوِي مَا أُصِيبُ بِهِ مِنْ فِقْدِكَ مَا أُصِيبُ بِهِ مِنْ فِقْدِكَ أَنْتَ يا محمداً. »

هنا بكيت...

الآن وأنا أكتب بعد عشرات السنين التي مضت، لم تغيبي ولن تغيبي عن بالي.

ففي قلبي أنتِ حَاضره دومًا،

كأنّكِ لم تَغِبْ يومًا.

لقد مرّتِ السّنواتُ سريعًا كَلمحِ البصر ، لكنّ ذِكراكِ بقيتْ حيةً في قلبي، كأنّ الفراقَ كانَ بالأمسِ.

ف لا شيء يُذكِّرني بِكِ

لأنه لا سبيل لنسيانكِ

فأنا أنتِ، وأنتِ أنا،

جسدان بروحٍ واحدة.

سادس رسائلكِ ...

« انتابَني إحساسٌ شديدٌ بأن أكتبَ جزءًا من ما شعرتُ به في ذلك اليوم ، فالمرءُ مَهْما استطاعَ وصفَ مشاعره لن يقدرَ على وصفها بشكلٍ كاملٍ أو دقيقٍ.

كنا نزورُ الطّبِيبةَ في عصرِ ذاك اليومِ

فألمحتُ نظرتَ الشّكّ وهي تقرأُ التّحليلَ الذي يخصّني وَكُنْتَ مَعِي جَالِسًا بِجَانِبِي ، فأمسكَتْ يدُكَ بيدي على الفورِ دونَ إرادةٍ منكَ، وَلَمْ تكُفَّ عن التربيتِ على يدي بينما تنتظرُ تقريرَ الطبيبة.

فَلَمّا أَحَسَسْتُ وَقْتَئِذٍ بِوَهْنٍ في عَظْمَة يَدِي

وَكَأنَّ رِعْشَةً يدك هزتْ أَصَابِعِي ويَدِي.

تَثاقلتْ أَثْقَالِي وثقلتْ أَحْمالي وأَظلمَتْ أفكارِي وأصبحتْ أَحوالي كأنَّني أَسْتَقْرِئُ أَسْرَارَ الْعَدَمِ

وَأَسْتَطْلِعُ أَفَاقَ الْأَلَمِ.

نظراتُكَ الحالمةُ تَغوصُ في عينيّ ، وكأنّكَ تُحاولُ إيصالَ رسالةٍ لا تَستطيعُ الكلماتُ ترجمَتَها. تَهمسُ بِكلماتٍ خافتةٍ: "لا تخف ، أنا معكِ".
وعندما طمأنتنا الطبيبةُ ، رأيتُ لمعانَ عينيكَ ، واسْتَسْرّتْ الدنيا حولَكَ ، وارتسمتْ ابتسامةٌ خافتةٌ على شفتيكَ ، كانتْ أغلى من حياتي لو عَلِمْتَ.
ففوزي فِي الدُّنيا هُو أنتَ، ويا ربِّ ينعمُ عليَّ بكَ في آخرتي ، فَأَتمناكَ زوجا وصحابيًّا و ونيسًا للجنَّةِ يا محمَّدًا. »

سابع رسائلكِ ...

« أعلمُ أنّكَ ستُفتقدُني كما أُفتقدُكَ الآن و أنا أكتب إليكَ هذه الكلمات .

مؤلمٌ هو شعوركَ الآنَ وأنتَ تَقْرَأُهَا ، فَأُقْسِمُ لَكَ يَا محمداً.. أَنَّ أَلَمِي كَانَ أَعْظَمَ وَأَمَرَّ وَأَنَا أَكْتُبُهَا.

أَتَذَكَّرُ حِينَ ذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي وَمَكَثْتُ عِندَهُمْ يَوْمَيْنِ؟ .

وَأَتَذَكَّرُ كَيْفَ كَانَ يَغْشَانِي شُعُورٌ يَخَنِقُنِي وَأَحَسَّ بِمَشَاعِرَ مُؤَلِمَةٍ جَدًّا؟ .

وأَتَذَكَّرُ أَنَّ هَذَا الأَلَمَ كَانَ أَصْعَبَ مَا شَعَرْتُ بِهِ فِي حَيَاتِي، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ أَصْعَبَ مِنَ المَرَضِ؟.

تذرف عينيّ الدموع ليلًا نهارًا ، لا أسفًا على موتي، فهو قضاء الله وقدره ، ولقد رضيت به رضا تامًا .

وإنّما لفقدانكَ يا حبيبي ، فَأَسْفِي وَأَسْفِي لِتَرْكِكَ وَحِدَكَ يَا حَيَاتِي، وَأَسْفِي ، و أَسْفِي لِتَرْكِكَ وحِدَكَ يَا رُوحِي.

وَاللَّهِ إِنَّ هَجْرَكَ لَيُفْرِقُ قَلْبِي وَيُحَطِّمُهُ ، وَإِنَّهُ لَيُفْرِقُنِي

عَنْ كُلِّ مَا أُحِبُّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. »

ثامن رسائلكِ ...

« في يومِ ميلادكَ الأولِ في بيتِنا ، جَلَسْنَا في أَقْرَبِ مَكَانٍ إلى قَلْبِكَ ، فَوَصَلَ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً مِنْ قَلْبِي أَيْضَاً لِمَا أَرَاهُ مِنْ رَاحَتِكَ فيهِ، وَهِيَ رَاحَتِي. جِئْتُ وَفي يَدِي كَأْسٌ مِنَ الحَلِيبِ البَارِدِ، عَالِماً بِحُبِّكَ لَهُ هَكَذَا، وَقَدْ أَحْبَبْتُهُ أَنَا أَيْضَاً.

كنتَ جالساً شاردَ الذهنِ، هائمًا ، فَلَمَّا تَقَدَّمْتُ مِنْكَ وَسِرْتُ أَمَامَكَ، أَلْمَحْتُ بَقَايَا دَمْعَةٍ عَلَى خَدِّكَ ، فَكَانَتْ أَثْمَنَ مِنْ حَيَاتِي ، إن كنت تدري.

فَجَلَسْتُ بِجَانِبِكَ وَأَمْسَكْتُ بِرَأْسِكَ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَمسحتُ دَمْعَتَكَ ، وَدُونَ أَيِّ حَدِيثٍ ، قَبَّلْتُ عَيْنَكَ وأسندْتُ رَأْسَكَ عَلَى كَتِفِي.

وَظَلَلْتُ أُرَدِّدُ: "لا بَأْسَ يا حَبِيبِي ، أَنَّنِي مَا زِلْتُ هُنَا، مَا زِلْتُ هُنَا لا تَبْكِ ، دَمْعَتُكَ أَغْلَى مِنْ حَيَاتِي، لا تَبْكِ".

وَقَدْ أَنْهَارَتْ أَنَا الأُخْرَى فَأَمْسَكْتَك بِيَدِي وَذِرَاعِي وَأَخَذْتَنِي في حُضْنِكَ. »

تاسع رسائلكِ ...

« لي طلب وأعلمُ أنّ طلبي قد يُفاجئُكَ ، وقد يُسبّبُ لكَ الألمَ. ولكنّي أُؤمنُ بِأنّ سعادتكَ هي أهمّ شيءٍ بالنسبةِ لي ، وأنّكَ تستحقّ أن تعيشَ حياةً مليئةً بِالحبّ والسكينة.

لذلك، أطلبُ منكَ أن تُفكّرَ بِجدٍّ في طلبِ الزواجِ من امرأةٍ أخرى تُحبّكَ وتُسعدكَ، وسأكونُ سعيدةً من أجلكَ حينها. أعلمُ أنّ هذا الطلبُ صعبٌ عليكَ ، ولكنّي أُؤمنُ بِأنّهُ سيكونُ أفضلَ حلٍّ لِك ، أعلمُ أنّكَ مُخلصٌ لي بِكلّ ما في قلبِكَ ، وأَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّنِي لِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ ، لَكِنَّنِي أُحِبُّكِ حبًّا أعظم بكثير ، أحِبُّكِ حُبًّا جَمًّا ، حُبًّا لَا نِهَايَةَ لَهُ ، حُبًّا غَرَسَهُ القَدَرُ فِي قَلْبِي مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى الَّتِي التَقَيْنَا فِيهَا ،

لَكِنَّهُ القَدَرُ!!.

وإيقاناً تاماً بكل ما يكنّه قلبكِ من مشاعر ، أؤكد لكِ

أنني لن أحزن على أي شيء يُسعدكِ.

فأنا مُولعةٌ بكِ حدّ التّيّم، وأغارُ عليكِ من كلّ شيء وكلّ شخصٍ يقتربُ منكِ.
آهٍ لو عرفتُ كيف أخفي مشاعري هذه بين أضلاعي لفعلتُ، ولكنها سنة الحياة، والأيامُ تمضي سريعاً.
لذا، أرجو منكِ يا محمداً أن تتزوج ، وسأكون أسعد امرأةٍ في العالم الأخر بهذا القرار. »

عاشر رسائلكِ ...

« أكتب إليكِ لأقول لكَ كم أخشى فقدانكَ ، حاملة في كلماتي كل ما يعتل في صدري.

مشاعرٌ مختلطة، أفكارٌ متداخلة، وحنينٌ يملأ قلبي. لن يندثر من ذاكرتي ذلك الشعور الجياش بالحُبّ والأمان، شعورٌ غمرني بفيضه، وجعلتَكَ يا محمداً محورَهُ ومنبعَهُ.

لقد أحسستُ بوجودكَ هُنا، بداخل قلبي، تُلامسُ كلّ ذرّةٍ فيه ، وتُنيرُ كلّ زاويةٍ منه بنورِ حُبّكَ ورعايتكَ.

في كل مرةٍ أراكَ أشعِرُ أنَ الدنيَا كانتْ وكنتَ أجملَ مَا فِيهَا. »

أخر رسائلكِ ...

« ربما تكون هذه آخر رسالةٍ أكتبها إليكَ ، فأنا على يقينٍ تام من أنني الآن لستُ في الوجود ، كم تمنّيتُ لو بقي لي القدرُ المزيدَ من الوقتِ لأقضيه معكَ ، ولكنّ مشيئة اللهِ وقضاءهُ لا رادّ لهما.

الحبّ الحقيقيّ لا يُقاسُ بِمُدةِ الزمنِ ، ولا يُقيّدُ بِقيودِ الجسدِ. إنّه شعورٌ عميقٌ يُلامسُ الروحَ ، ويُخلّدُ في ذاكرةِ القلبِ إلى الأبد.

وَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ أَعْرِفَ هذا الحُب يوماً ، فَجِئْتَ أَنْتَ و أَعْرَفْتَنِيَ هَذَا الْحُبّ الَّذِي لَمْ أَحْسَبْهُ يَوْمًا ،فأنتَ أيقظتِ فيّ مشاعرَ لم أكن أعرفُ أنّها موجودةٌ بداخلي.

رجلٌ وديعٌ ، رؤوفٌ ، لم أُبْصِرْ له عيبًا قطّ ، بل كانَ يُجسّدُ أسمى قِيَمِ الإنسانيةِ. يهتم بجميع أموري ، ويُسارِعُ إلى تلبيةِ احتياجاتي دونَ تردّدٍ. لا يَسْعِدُني في حياتي شيءٌ سوى كينونته الدائمة بجانبي.

جزاكَ اللهُ خيرًا بقدرِ ما أسعدتَني يا محمداً.

وداعاً يا عُمري، نلتقي قريباً في جنةِ الفردوس نحيَا.»

" ٢ من شهر سبتمبر ، سنة ٢٠١٤ ...."

وعلمتُ علمًا يقينيًا ، أن وفاتك آتية لا محالة ...

منذ أسبوع، عدت من عملي لأجدكِ في المنزل في وقت غير معتاد. كان يوم الأربعاء، وأنتِ عادةً ما تتأخرين في هذا اليوم بسبب محاضراتكِ الجامعية المُتأخرة.

لطالما شجّعتُ سعيَكِ الدؤوب، يا شمس، منذ تخرجكِ بتفوقٍ باهرٍ. فقد تمّ تعيينكِ معيدةً في الجامعة لما أظهرتِهِ من ذكاءٍ استثنائيٍّ أهلّكِ للحصول على المركز الأول كل عامٍ على مدار خمسة أعوامٍ متتالية ، على الرغم من رفضي في بادئ الأمر تلبيه طلبها، إلا أنّ إصرارها الشديد حثّني على الموافقة. لم أتمكن من رفض طلبها، فما من طلب لها إلاّ ولبيته ، فهي تستحقّ كلّ ما تتمناه.

كان لذكائكِ سببٌ غريبٌ، يا شمس، فقد كنتِ تعانين من نوعٍ نادرٍ من سرطان الدماغ، يُعرف بتسببه في زيادةٍ هائلةٍ في القدرات الذهنية. للأسف، عاد هذا السرطان بعد إزالتهِ سابقاً، وخطفكِ منّا بعد يومٍ واحدٍ فقط من أجراء العملية.

أتذكر ذلك اليوم بوضوح ، كيف عدتُ من العمل لأجدكِ

جالسةً على مقعدٍ في الصالة ، ممسكةً برأسكِ.
كانت تلك الصدمة الأقسى في حياتي ،
على الرغم من أنّنا كنا نزور طبيبتكِ المختصة بانتظام ، ولم يمضِ شهرٌ واحدٌ دون إجراء تحاليلٍ تُظهر أنّ حالتكِ مستقرة.
لكن في ذلك اليوم ، كان الأمر مختلفاً. اقتربتُ منكِ على الفور، وسألتُكِ: "ما بكِ يا شمس؟ . بماذا تشعرين؟". نظرتِ إليّ بتعجب، وكأنّكِ لم تنتبهي لوجودي. حاولتِ طمأنتي بأنّكِ بخير، وأنّكِ تعانين فقط من صداعٍ خفيف. لكنّ الإرهاق كان بادياً على وجهكِ ، اقتربتُ منكِ أكثر، ووضعتُ يدي على جبينكِ. كان ساخناً. لم أتمكن من تمالك نفسي ، والخوف كان يعتصر قلبي.
اصطحبتُكِ على الفور إلى الطبيبة، على الرغم من محاولاتكِ لمنعي. لم أستطع تحمل فكرة أن تُعاني وحدكِ ، خاصةً بعد صراعكِ الطويل مع هذا المرض اللعين. وصلنا إلى المستشفى، وأجريتِ الفحوصات اللازمة. لم تكن النتائج إيجابيةً للأسف، فقد أكدت عودة السرطان ، وسرعة انتشاره بشكلٍ مخيف. كانت الطبيبة المختصة التي أجرت الفحوصات هي من ألقى عليّ بظلال الشك الأول. نظراتها لم تُبشر بالخير، بل حملت في طيّاتها شفقةً عميقةً على فتاةٍ لم

تتجاوز السادسة والعشرين من ربيع عمرها، تُواجهُ قدرها المحتوم وتُفارق الحياة بهذه السرعة القاسية.

نظرتُ إلى شمس ، التي كانتْ ترقدُ على سريرِ المستشفيِ شاحبةً وضعيفةً.

حاول الأطباءُ كلّ ما بوسعهم ، لكن دون جدوى. كان السرطان قد تفشّى في دماغكِ بسرعةٍ هائلة ، لن يترك لنا آملاً ضئيلاً في النجاة حتى.

انهار عالمي في تلك اللحظة. شعرتُ وكأنّ الأرض تُسحب من تحت قدمي ، وكأنّ كلّ شيءٍ يُصبح بلا معنى.

أمسكتُ بيدكِ ، سعياً وراء طمأنينةٍ لم أكن أشعر بها ، بينما كنتُ أنا في أمسّ الحاجة إليها.

نظرتُ في عينيكِ، اللتين كانتا تملأهما الحزنُ والألمُ، لكنْ مع ذلكَ كانتا تُشعّانِ بِشجاعةٍ وإيمانٍ لا مثيلَ لهما.

همستُ لكِ بكلماتٍ خرجتْ من أعماقِ قلبي: "لا تخافي يا حبيبتي. أنا هنا معكِ. سنواجهُ هذا التحدّي معاً، وسننتصرُ على هذا المرضِ اللعينِ."

لكنْ في أعماقِ نفسي ، كنتُ أعلمُ أنّ الأملَ ضئيلٌ. لقد أكّدَ الأطباءُ أنّ حالتكِ ميؤوسٌ منها، وأنّ العلاجَ لن يُجدي نفعاً.

شعرتُ وكأنّ قلبي قد توقف عن الخفقان، وأنّ الدنيا قد فقدتْ ألوانها. لم أستطعْ أن أُخفيَ دموعي عنكِ. لقد انهمرتْ على

وجنتيّ دون أن أتمكنَ من السيطرةِ عليها. شعرتُ بالعجزِ والحزنِ واليأسِ.

لكنْ أنتِ، يا حبيبتي، كنتِ أقوى مني بكثيرٍ. لقد وضعتِ يدكِ على يديّ، ونظرتِ في عينَيّ بِابتسامةٍ حزينةٍ. قلتِ لي: "لا تحزنْ يا حبيبي. مهما حدثَ، سأكونُ سعيدةً طالما كنتُ معكَ."

إنّ من أعظم العِبَرِ والتّذكيرِ تأمّلُ حقيقةِ هذه الدّنيا، وما هي عليه من قِصَرٍ وخَسَاسةٍ ، فمهما طالتْ أيّامُها ، وامتدّتْ سنونُها، فهي في نظرِ الشّرعِ والعقلِ قصيرةٌ جدّاً، لا تُقاسُ بِما بعدَها من حياةِ الآخرةِ الأبديّةِ.

و مهما عظمتْ متاعُها وزخارفُها، فهي حقيرةٌ لا تُقاسُ بِما عندَ اللهِ من ثوابٍ وخير.

وَلقدْ وَلَت هَذَه الدَّنْيَا فِي عَيْنِي بِرحيلكِ عني.

" ٧ من شهر مارس ، سنة ٢٠١٥ ...."

كأنّ الأشياء الجميلة لا تأتي إلّا مرّة واحدة في العمر، تحدث مرّة واحدة ، ونعلم يقيناً أنّها ستنتهي سريعاً ...

أجلس وحيدًا وسط ظلمة دامسة، أرفع رأسي على حافة مقعدي، فأغمض عينَيّ وأسافر بعيدًا عن مدارات الكون ، أُحلّق في فضاءٍ من الخيال بلا حدود ، هناك حيث ألتقيكِ ، حيث تُصبحينِ حاضرةً في عالمي اللامتناهي ، لا أدري أأنا مستيقظًا أم نائمًا ، أشعر وكأنّني على حافة اليقظة والنوم، لكنّ شعورًا عميقًا بوجودكِ يغمرني.

أُفتحُ عينَيّ فجأةً، فأجدُ نفسي وحيدًا في ظلمةِ الغرفةِ، لكنّ شعورًا عميقًا بوجودِكِ لا يزالُ يُغمرُني ، شعورٌ لا يُمكنُ وصفُهُ بالكلماتِ ، شعورٌ يُلامسُ روحي ، ويُخاطبُ قلبي، شعورٌ يُؤكّدُ لي أنّكِ لستِ بعيدةً عني ، وإنّكِ حاضرةٌ في كلّ لحظةٍ ، في كلّ نفسٍ ، في كلّ خفقةٍ من قلبي.

أُدركُ أنّكِ لستِ حاضرةً جسديًا ، لكنّكِ حاضرةٌ روحيًا ، حاضرةٌ في خيالي ، حاضرةٌ في قلبي ، حاضرةٌ في كلّ ذرّةٍ

من كياني.
لو ما صدّق شعوري هذا ، صدقيني لما عشتُ لحظةً واحدة ، أنتِ فاتنتُ الحسنِ ، وذاتُ الخلقِ الرّفيعِ ، والنّفسِ الطّيبةِ.
هكذا أنتِ يا حبيبتي في عيني ، أعزّ ما حَوَتهُ يميني.
مَا الفائدةُ أنْ يعيشَ المرءُ طويلاً ، وليس هو بسعيدٍ؟ .
إنّ الفائدةَ أنْ يعيشَ سعيدًا ، ولوْ كانَ ذلكَ قليلاِ.
وقد عشتُ معكِ أربعَ سنينَ إلاّ بضعةَ أشهرٍ بفضلِ اللهِ تعالى، في سعادة دائماً ، لِعُمرِنا تَشاجَرنا لِشَيءٍ كانت حياة هادئة بسيطة.
فَكُلَّما ازدادَ عُمُرُنا ازدادَ حُبُّنا وَتَوَثَّقَتْ عُرَى الرَّباطِ بينَنا ، وكانَتْ أيامُنا مَلْأَى بِالفرحِ وَالسرُورِ، وَالْمُتعَةِ وَاللذةِ.
هذا اليوم، ولكن العام الماضي كنتِ معي هنا على أرض الواقع لا في الخيال ،
أتذكرينَ كيفَ قضينَا ذلكَ اليومَ؟.
تتشابكُ الذكرياتُ معَ الأمكنةِ والأشخاصِ، وتُصبحُ جزءًا منّا، تُلامسُ قلوبَنا، وتُحيي مشاعرَنا. وكم من موقفٍ بسيطٍ قد يُثيرُ في أعماقِنا عواطفَ جياشةً، ويُعيدُ بنا إلى زمنٍ مضى.
أذكرُ ذلك اليومَ الذي كنا فيه جالسينَ عندَ أهلكِ. وكانَ هدوءُ المكانِ يلفّنا، وفجأةً، علا صوتُ الأذانِ في سماءِ بلدكمِ ، تذكّرتُ حينها جارَكم، ذلك الرجلَ الطيبَ الذي كانَ يؤذنُ في

المسجدِ الذي يقعُ في آخرِ شارعِكم. وكانَ صوتهُ العذبَ يُلامسُ قلبي، ويُضفي على نفسي شعورًا بالراحةِ والطمأنينةِ.
عجباً لمنْ قالَ لا راحةَ في الدنيا !!.
فَإِنَّنِي أَرْتَاحُ وَأَطْمَأِنُّ حِينَمَا أَسْمَعُ صَوْتَ هذا الرجلِ في الأذنِ وصوتَ مشاري في القرآنِ الكريمِ.
أصوتٌ يرتاحُ لها القلبُ.
كأنّ هذين الصوتينِ هما بلسمٌ لِجروحي، وشفاءٌ لِأَحزاني.
تَسْكُنُ الْأَنْفُسُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا، وَتَتَسَامَى الْأَرْوَاحُ، وَتُحَلِّقُ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى.
وبينما نحن جالسون ، وصّيتني يومئذٍ أن أدفنكِ ها هنا في قريتكِ ، تلك القرية التي نشأتِ فيها وترعرعتِ بين أزقتها الضيقة وشوارعها المتعرجة، تلك القرية التي شهدتِ طفولتكِ وبراءتكِ وفرحكِ وحزنكِ، تلك القرية التي أحببتِها وأحببتِ أهلها ، قلتِ لي يومها: **"أريد أن أعود إلى جذوري ، أريد أن أكون جزءًا من هذه الأرض التي أحببتها، أريد أن أكون قريبة من أهلي وأصدقائي، أريد أن أكون هنا في قريتي."**
وإنني التزمتُ بوصيتكِ يا عزيزتي، ودفنتُكِ ها هنا في قريتكِ ، لم يمضِ يومًا واحدًا دون زيارتي لكِ في قبركِ، أسيرُ في بلدكِ أحبُّها كما أحببتِها أنتِ.
مثلَ أن تذهب إلى مكانٍ قديم على أمل أن يعود كُل شيءٍ كما

كان للحظة!.

أَنا الآن أجلسُ في نفسِ المكانِ ونفسِ الوقتِ ونفسِ أذانِ العصرِ، كُلُّ شيءٍ موجودٌ سواكِ يا من كنتِ تُملئينَ الوجودَ. غابَ ضحكُكِ، وخفتَ صوتُكِ، ولم يَعُدْ لِلمكانِ طعمٌ دونَكِ. أَحاولُ جاهدًا أن أَسْتَرْجِعَ الذكرياتِ، أَتَمَسَّكُ بِكُلِّ ذَرَّةٍ من الهواءِ عَلَّني أَلْقَى فيها بَصْمَةً من وجودِكِ. أَسْمَعُ صدى صوتِكِ في حفيفِ الأوراقِ ، لكن كلّما ازدادَتْ محاولاتي، ازدادَتْ وَحْدَتِي.

أُسْرِعُ الخطى في الشوارعِ، أبحثُ عن ظِلِّكِ بينَ الوجوهِ، أَظُنُّ أَنَّني سأراكِ في كلِّ زاويةٍ، لكنّني لا أجدُ إلّا خيالكِ يُلاحقُني. أُحاولُ أن أَتَكَلَّمَ معكِ، لكنّ صوتي يَخْنِقُهُ الحزنُ، وكلماتي تَتَبَخَّرُ في الهواءِ.

أشعرُ أنّني أَفْقِدُ عقلي شيئًا فشيئًا، لا أستطيعُ أن أَفْكِرَ بِصَوْبٍ، ولا أستطيعُ أن أَقْرَرَ أيّ شيءٍ. أَحُسُّ كأنّني أَغْرَقُ في بحرٍ من الحزنِ، ولا أجدُ من يُنقذُني.

أُحسّ بالخوفِ من أن أُصبحَ مريضًا نفسيًا بمرورِ الزمنِ. تُلاحقُني أفكارٌ سوداءٌ، أخشى أن أُفقدَ صوابي، وأن أُصبحَ عاجزًا عن مواجهةِ الحياةِ. وشابَ فوْدِي إثْر غيابكِ.

أشتاقُ إليكِ جَدًّا وإلي أَيامنَا الحلوةِ معًا.

" ١٢ من شهر فبراير ، سنة ٢٠١٦ ...."

والله إن الوحدة لحقيقة ، يجدها الإنسان في غيبة من يُحِبُّ ، وفقد من يرى فيه حياته ، فكأن العالم كله معه ولكن لا يجد له أنساً ولا رفيقاً ، وكأن الناس كلهم حوله ، ولكن لا يرى فيهم من يُؤنسُهُ وَيُفهمُهُ ...

اليوم زفاف أختي حنان على طبيبٍ فاضلٍ، كمثلها في الفضيلةِ والكرمِ.

فرحٌ في إحدى القاعات ، اجتمعَ فيهِ الأهلُ والأصدقاءُ، كلّهم فرحونَ سعداءُ بزواجِ حنان.

كنتُ جالسًا أنا وأذانٌ وأستبرقُ وأمّي جنبًا إلى جنبٍ، بينما تجلسُ أمُّكِ وأبكِ على كرسيٍّ مُقابلٍ لنا ، جميعاً هنا موجودون إلا أنتِ يا من كان يملأ الوجود ،

أُجيلُ الطرفَ فيمن حولي ، فأرى في عيونِهم بقايا دموعٍ لم تجفّ ، ومسحاتٍ من الحزنِ لم تُمحَ.

فبرغمِ السعادةِ التي تُغلفُ وجوهَهم ، إلّا أنّ رحيلكِ يا حبيبتي ، قد تركَ أثرًا عميقًا في قلوبِهم.

وإنّ حزنَهم ليُؤكّدُ على عظمِ الخسارةِ التي ألمّتْ بنا جميعًا.

لا أُعنى بتفاصيلهِ كما تُعنى أنتِ، بل سأُحدثكِ عن لمسةٍ

لامست قلبي ، أعادت لهُ نبضه بعد أن توقفَ منذ رحيلكِ.
فقد أصبحتُ بلا مشاعرَ، جثةً هائمةً، لا أُحسّ بشيءٍ، فأنتِ كنتِ مشاعري وأحاسيسي كلها ، وبرحيلكِ ماتَ كلُّ شيءٍ.
وحتى لا أُنسيَ الموضوعَ ، بعد الفرحِ ، وبعد أن نامَ أولادُنا، جلستُ على مقعدي في شرفةِ شقتنا ، رافعاً رأسي إلى السماء، أغمضت عيني، وتخيلتُكِ هنا معي.
فكأنّكِ كنتِ حاضرةً بالفعلِ ، وكأنّ روحكِ الطاهرةَ حامتْ حولي ، ولامستْ قلبي المُكلومَ ، فَأَسْكَنَتْ فيهِ السكينةَ والطمأنينةَ ، وأعادتْ إليهِ دفءَ الحياةِ ونبضَها. واللهِ لقد كنتِ معي، ولمستُ يدكِ بيدي، بعد حديثٍ دامَ بضعَ دقائقَ ، في لحظةٍ لا أدري أهي من الخيالِ أم من الواقعِ.
وما هي إلا لحظاتٌ حتى غابتِ عني من جديد.
فجأةً ، هبّتْ نسمةٌ باردةٌ لامستْ وجهي ، ففتحتُ عينيّ على واقعٍ مُرّ.
حتماً ، دمعةٌ في عينيّ تُكابرُ ولا تريدُ النزولَ.
نهضتُ من مقعدي ، ودخلتُ إلى الشقةِ. سادَ صمتٌ ثقيلٌ في كلّ ركنٍ ، وكأنّ جدرانَ الشقةِ تشاركني حزني.
نظرتُ إلى صورِنا معاً المُعلّقة على الجدرانِ ، ففاضتْ عيناي بالدموعِ.

أصبرُ نَفْسِي طويلاً يَا دُكتُورتِي لعلنَا نلتقِي قَرِيبًا .....

" ٢٨ من شهر أبريل ، سنة ٢٠١٨ ...."

ما زلتُ عاجزًا عن السيطرة على النوبة التي تأتيني ، حينما يحنّ فؤادي إليكِ بحدّ لم أستطع وصفه ...

أحاولُ جاهدًا يا حبيبتي أن أُسيطرَ على هذه النوبةِ التي تُؤلِمُني، لكنّ شوقي إليكِ يفوقُ قدرتي. يزدادُ حنينُ قلبي إليكِ بِشدةٍ لم أعرفْ لها مثيلًا ، حتى باتَ الوصفُ عاجزًا عن التعبيرِ عن عمقِ مشاعري.

أشعرُ أنّني أعجزُ عن مقاومةِ هذا الشعورِ الجارفِ.

يا أيها الإنسانُ،

هَلْ جَرّبْتَ شُعُورَ العَدَمِ؟ .

شُعُور أنكَ لَمْ تَكُنْ موجُودًا، لَمْ تولدْ، ليس زوالًا،

بَلْ شُعُورًا بِأَنّكَ لَمْ تَأْتِ إلى الدُّنْيا مِنْ أَسَاسِهِ؟.

شُعُورٌ غَرِيبٌ، مُرِيبٌ،

كَأَنّكَ فِي قَرَارَةِ وَادٍ سَحِيقٍ، لا سَبِيلَ لِلْوُصُولِ إلى قِمّةٍ عَالِيَةٍ.

لا وُجُودَ لَكَ ، لا كَيَانَ ، لا أَثَرَ ، كَأَنّكَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا يَذْكُرُ.

يُراودُني هذا الشّعورُ أحيانًا كَطيفٍ خفيفٍ يَمرّ بِخاطري، وأحيانًا أخرى يَغمرُني كَسحابةٍ كثيفةٍ تُخيّمُ على عقلي.

يَحضرُ دونَ سابقِ إنذارٍ، ودونَ سببٍ واضحٍ، ويُسيطرُ على

تفكيري وشعوري.
هل هَذَا الشُعُورُ يُقلِقُكَ، لكنهُ يُرِيحُنِي ، يَهُونُ على عَقْلِي.
فكلّ امرئٍ يهونُ على نفسِهِ بطريقتهِ الخاصّة.
وَلاَ يَسْتَوِي النّاسُ فِي هَذَا الْأَمْرِ.
تَخَيّلْ مَعِيَ يا عَزيزِي القارِئُ، أَهْوَنُ عَلَى نَفْسِيَ الأمْرَ قَدْرَ الإمكانِ كَيْ أَدْرِكَهُ، أمّا القَلْبُ فلا يَفْهَمُ، لا يَفْهَمُ أَبَدًا.
فَإنّني عندما أتذكرُ أحبّتي، يملأُني الحنينُ إليهم، ويُصبحُ الحزنُ أثقلُ على احَسّاس يَخْنُقُنِي وَيَكَادُ يَقْتُلُنِي،
وأكاد أَجْزَمُ أَنه لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْكم تَحملهُ ،
ويُصبحُ البكاءُ مُلازمًا لي.
فَأُدركُ أنّني لا أملكُ شيئًا، وأنّني عبدٌ للهِ تعالى، وأنّ اللهَ تعالى هوَ المُحيي والمميتُ، وهوَ الذي يُقدرُ الآجالَ.
في كل مكان أراكِ حولي ، أسمع صوتكِ في أي أمر في طريقنا ، في كلّ حركةٍ من حركاتِ الحياةِ اليوميةِ ، أُحسّ بوجودِكِ معي في كلّ مكانٍ ، في هواءِ الصباحِ البارِدِ ، وفي دفءِ أشعةِ الشمسِ، وفي هدوءِ الليلِ. أسمعُ صوتَكِ في همسِ الرياحِ، وفي خريرِ الماءِ ، وفي تغريدِ الطيورِ.
أراكِ في وجوهِ أولادِنا ، في ابتساماتِهم، في عيونِهم ، في تصرفاتِهم. أرى فيهم انعكاسَ شخصيّتكِ، وأحسّ بِروحِكِ تسكنُهم. أتذكرينا قبل هذا الوقت ، أتذكرين أنكِ لم تكوني

حاضرة بروحكِ لا بجسدكِ؟.
مُؤلمٌ هو شعور إنكِ لستِ معي ، كأني أحتضر، ربما أختنق.
أراكِ يا حبيبتي في عينيّ امرأةً مثالية ، ناضجةً في الثلاثين من عمرها ، تُجسّدُ في ثناياها معنى الجمال الحقيقي.
عقلٌ راجحٌ يُشعّ من عينيكِ ، وحكمةٌ تُزيّنُ محياكِ. أتخيلُ كيف ستكونين أمًّا رائعةً لأولادنا ، تُربّيهم بحنانٍ وعقلٍ ، وتُغرسُ فيهم القيمَ والمبادئَ السامية. أُدركُ أنّني أتعاملُ مع الأمور بقلبٍ مُحبٍّ وعاطفي ، بينما أنتِ تتمتعين بعقلٍ حكيمٍ وواقعي. وهذا التناقضُ بالتحديد هو ما جمعنا معًا.
لا يَفُتُّ تفكيري عنكِ يا عزيزتي لحظةً واحدة ، فأراكِ في جميعِ مراحلِ حياتكِ ، مُتخيّلًا إياكِ في كلّ عمرٍ تعيشينه.
اليومِ أتممتِ ثلاثينَ عامًا من حقبةِ الحياةِ الدنيا ، بينما أتممتِ ستّ سنواتٍ من رحيلكِ في جنةِ الخلدِ بإذنِ اللهِ تعالى ، أُؤمنُ إيمانًا راسخًا بأنّكِ في مكانٍ أفضلَ الآن ، وأنّكِ تنعمينَ بالسكينةِ والراحةِ الأبدية.

" ١٩ من شهر يوليو ، سنة ٢٠١٩ ... "

يا ليتَني لم أعرفْ طعمَ السعادةِ يومًا، لما أُذِقْ من مرارةَ الفقدِ اليومَ ....

أعلمي أنّي أحبّكِ ذلك الحبّ النقيّ الخالي من أيّ شهوة.

كنتِ جميلة بحدٍّ بسيط، وكان جمال قلبكِ يفوق كلّ عظيم.

شرفتِ منزلنا الواسع، فذلك المكان كان أكثر تواجدنا فيه.

كنا نشربُ مشروبنا الخاصّ، لبنًا باردًا جدًّا محلىً بعسل نحلٍ خفيف، ونجلسُ نتأملُ كلّ ما هو جميل.

وكنا نتحدثُ لساعاتٍ طويلة، لا نملّ من الحديث، ولا يملّ القلبُ من نبضه.

كنتِ دائمًا بقربي، لا تبتعدين عنّي إلّا قليلاً،

والمكانُ الوحيدُ الذي لا يجمعنا هو مكان العمل،

ولا شيءَ آخرُ يفصلُنا.

كان لمعان عينيكِ عند رؤيتي أكثر ما يجذبني، كأنّ فيه بريقًا خاصًّا ينيرُ دُنياي.

وكنا نتبادلُ القبلاتِ على أيدينا، تعبيرًا عن حبّنا ومودّتنا.

كانت علاقاتنا بسيطة، خالية من التكلف والمظاهر، وكان هذا هو أجمل ما فيها.

ففي بساطةِ علاقاتنا كانتْ صدقُ المشاعرِ وجمالُ العفوية.

واللهِ لقد كَانَتِ الدنيا جَميلَة ،
ولقد زادَتْ حُسنًا بِوُجودكِ ،
ولقد كَانَتْ كلماتُكِ عذبَة ،
كالمسكِ تَملأُ قَلبي فرحًا وسُرورًا ...
فلو أنّ هذه اللحظاتِ تدومُ أبدًا، لما فارقتُ ظلكِ طرفَ عينٍ.
أَوَسَعُ الغُرَفِ في المنزلِ هي غُرَفَتُنا، ولعلها أوسعُ بِكثيرٍ من شقُقٍ بأكُملها. هذا من حَيْثُ مساحتُها، أما الضيقُ فتضيقُ الدُنيَا بِمَا رَحِبَتْ وأنتِ لستِ فيهَا.
وإن ضاقَتْ الْإمَكَان فَإِن المشاعرَ لا تَضِيقُ، وَإِنْ بَعُدَتْ الأَجْسَادُ ، فَإِن الْقُلُوبَ لا تبعُدُ.

ليت الموت لم يُفرقنا، ليتكِ هنا معي الآن ...

" ١١ من شهر يوليو ، سنة ٢٠٢١ ..."

الأهلُ همَ الأمانُ ، فإلى أينَ يلوذُ المرءُ إذا ضاعَ الأمانُ في بيتهِ ؟! ...

كان المحاسب غائبًا عن العمل اليوم لظرفٍ ما. وكنتُ في بعض الأحيان أساعده في عمله ، فقررتُ أن أقوم به بمفردي اليوم. أدركتُ أنّ عمل المحاسبة صعبٌ للغاية، لكنّ الممارسة تُساعدُ على إتقانِه. فمع الممارسة ، يصبحُ العقلُ قادرًا على تنفيذِ المهامّ الروتينيةِ الصعبةِ بِكفاءةٍ.

قمتُ بملءِ جميعِ المسوداتِ وحسابِها جميعًا دون الحاجةِ إلى استخدامِ الآلةِ الحاسبةِ ، على الرغم من أنّ بعضَ الأرقامِ كانت تُعدّ بالملايين. تعرفينَ حبي الشديدَ للأرقامِ وحساباتها.

في اليومِ التالي ، عندما عاد المحاسبُ إلى العملِ ، كان الحزنُ بادٍ عليهِ. كانَ ذلكَ الشابُّ حديثَ التخرّجِ ، لم يتجاوز عمرُهُ أربعةً وعشرين عامًا ، طيّبُ القلبِ ، وَدودٌ مع الناسِ، بشوشُ الوجهِ ، مِلْحُ المجالسِ.

حين أزفّ وقت الرّاحة من العمل، اتّجه جمعٌ من الموظّفين إلى مطعم الشركة ، مُفضّلين إيّاه لجلوسهم ، أمّا أنا ، فقد اخترتُ الحديقة الخلفية للشركة ، مُفضّلًا إيّتها على غيرها. وكانَ هذَا الشابُ مِن مُحبِي الجُلُوس في الحديقَة معِي.

لم أَحْتَمِلْ أنْ أتركَهُ وحيدًا وهو غارقٌ في حُزْنِهِ ، فَاقْتَرَبْتُ منهُ على الفورِ، على الرغمِ منْ بُعدِ السنّ بيننا، إلّا أنني أُحِبهُ وأُسعدُ بتقديمِ المساعدةِ لهِ في كل أمرٍ. فقدْ كانَ بالنسبةِ لي كأخٍ أصغرَ.

كنا في خلوةٍ تامّة ، وضعتُ يدي على كتفهِ ، ونظرتُ في عينيهِ بِحُبٍّ واهتمامٍ ، وسألتُهُ عنْ سببِ حُزْنِهِ. فَفَتَحَ قَلْبَهُ لي ، وسَرَدَ عليّ ما يُؤرِقُهُ ويُثْقِلُهُ.

لا تتخيلي يا عزيزتي حجم حزنه ، سأقصّ عليكِ تفاصيله واحداً تلو الآخر، فالأمر في غايةِ الحزن.

كان لهذا الفتى أبٌ وأمٌّ وأخواتٌ بناتٌ ، لكنّه كان وحيدًا بينهم، لا يُحبّونه ، ويُفضّلون عليه أخواتهِ البناتِ. وكانوا يُعاملونهُ سوءَ المعاملة ، ويُهينونه ، ويَشتمونهُ ، ويَصبّون عليهِ اللّعنات.

وكانت أختُهُ الكبرى تتدخّل في شؤونهِ بشكلٍ مبالغٍ فيه ، تُثيرُ الفتنةَ والخصامَ بينهِ وبين أبويهِ.

ولكنّهُ لم يستطعْ تحملَ ذلكَ الظلمَ أكثرَ من ذلكَ. يوم أمس ، ثارَ على عائلتهِ ، وصرخَ بكلّ قوّتهِ ، مُعبّرًا عنْ غضبهِ وحزنهِ من سوءِ معاملتهم لهُ.

فرفعَ أبوهُ يدهُ عليهِ.

كان ضعيفَ الشخصيةِ ، طيّبَ القلبِ حدًّا كبيرًا ،

فكان ذلك سببًا لتجرّؤِ عائلتهِ عليهِ. وكان ينهارُ من شدّةِ البكاءِ دائمًا ، وصارتْ الكآبةُ تملأُ قلبهَ معظمَ الوقتِ ، كان يتكلّمُ ويداهُ ترتعشانِ ، ودمعُهُ ينهمرُ دون إرادتهِ من شدّةِ القهرِ الذي يُعانيهِ.

مهما بلغَ المرءُ من الكِبرِ مَا بَلَغَ ، فإنهُ لا غنى لهُ عن أهلِهِ : أمهِ وأبيهِ وأخواتهِ ،

ففيهمْ يجدُ الأمانَ والسكينةَ والحبّ.

وقد افتقدَ هذا الشابُّ الأمانَ وأصبحَ وحيدًا ،

فَعزمتُ أن أكونَ لهُ أهلَهُ وأُعوّضَهُ قدرَ الإمكانِ.

فَكُنْتُ أُصَاحِبُهُ فِي الْحَدِيقَةِ وَنَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأُصْغِي إِلَى أحاديثهِ بأذُنٍ صاغيةٍ وقلبٍ مُتعطِّفٍ.

وَكُنْتُ أُسَاعِدُهُ فِي أَمْرِهِ وَأُشَارِكُهُ فِي أَفْرَاحِهِ ، وَأَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ فِي أَحْزَانِهِ.

إلى يومنا هذا ....

ولقَدْ تغير هذا الشاب كثيرًا ، فأصبحَ أَقوى شخصِيَة وأكثرَ ثِقة بنفسه ، وابتعدَ عن أهلهِ الذينَ ظلمُوهُ.

وتزوجَ منذ عامٍ وأنجَبَ ولدًا ، فَأَصْبَحَتْ لَهُ عَائِلَةٌ جَدِيدَة تُحِبُّهُ وترعاهُ.

ومعَ الأيامِ ، بدأ أهلُهُ يتردُونَ عليهِ ، وذلكَ بعدَ أن تَزَوَّجَ أخواتُهُ البناتُ وانشغلوا بحياتهم.

وأحبوهُ واقتربُوا منهُ وقدرُوهُ حق قَدرِهِ ، وَاعتذَرُوا منهُ كثيرًا على ما فعلُوهُ بِهِ من ظُلمٍ وقهْرٍ.

وسامحهُمْ وعفا عنهُم لطيبِ قلبهِ وأثرِهِ الحسنِ في النفسِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، أَصْبَحَتْ عَائِلَتُهُ تُحِبُّهُ وَتُحَتَرِمُهُ ، وَهُوَ يُحِبُّهمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ.

وأثبتَ هذا الشابُ أن الإنسَانَ بإرادتهِ وعزيمتَهِ يمكنُهُ أن يُغيرَ حياتهُ إِلَى الأفضلِ، وان يحقق السعادة الَتي يسعَى إِليهَا.

وأن الْغُفرانَ والحُب هُما أقوى الأسلحةِ لتحطيمِ الحقدِ والكراهيَةِ ، وبناءِ العلاقاتِ الإيجابيةِ بين الناسِ.

يا من تقرأُ كَلَامِي ، كُن قرِيبًا من الناسِ ، وَكُن عونًا لَهُم فِي زمنٍ انعدم فِيهِ الأمنُ وجفتْ فِيهِ الْأَحَاسِيسُ ، وَأَصْبَحَتِ الْقُلُوبُ كَالْحِجَارَةِ.

وَلَوْلَا وجودي مع هَذَا الشَّابُّ ، لَأَصْبَح مَرِيضًا نَفْسِيًّا ، فأَنْقَذَته مِنْ وَحْدَتِه.

وَكُلُّ هَذَا الَّذِي أصابه كَانَ سَبَبُهُ أَهلة ، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا سَوِيًّا نَفْسِيًّا ، فَأَذَوْنِي بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

وإن كان في حياتك شخص كهذا الشاب ، فاقترب منه وساعده. ففي مجتمعنا كثيرون ضعاف الشخصية ، وربما تكون أنت يا من تقرأ كلامي من بينهم. تذكر أن الله موجود ولا تحزن .

" ٨ من شهر أكتوبر ، سنة ٢٠٢٣ ... "

بِعُمْرِي أَنَا أَفْتَقِدُكِ حَتَّى أَفْنَى ... وَلَا أَنْسَاكِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ...

٢٠٢٣/١٠/٨ .... إلي الآن ...

فترة قصيرة لأي إنسان ، ناهيك عن شعب فلسطين.

كأنها قرن من الزمان ، قرن من الفقد الجلل ، القتل ، وانتهاك حرمات الإنسان ، صغيرًا كان أم كبيرًا.

تلك هي المدة التي عاشها الفلسطينيون تحت وطأة الاحتلال، يعانون من ويلات الحرب والقهر والظلم.

فقدوا بيوتهم وأراضيهم، وذويهم وأصدقائهم، وأحلامهم ومستقبلهم.

لم يروا من السلام سوى ومضات خافتة سرعان ما انطفأت.

عاشوا في خوف دائم ، وموت محدق ، ونقص في كل مقومات الحياة.

سأتكلم ببطء ، فالأمر صعب للغاية.

أبتدي بِخِذْلانِ العربِ أوّلًا ، بِحقائقَ أَلمتْ بنا ، ولئنْ كَتَمها البعضُ ، فَلا مَنعَ منْ إذاعتها وإظهارِها.

أُقول بِأنَّ أمتنا العربيةَ أَضحتْ بعيدةً عن مَبادئِ الإسلامِ ، لَمْ يبقَ منه سوى الاسمِ ، وَمنْ سنّتهِ إلا القليلُ.

أُقول بِأنَّنا أَضللْنا السّبيلَ ، وانجررْنا وراءَ شهواتِنا ورغباتِنا الدنيوية ، نَسينا المروءةَ والكرمَ ، وتنازعنا على السلطةِ والمالِ ، وأَسفَكْنا الدماءَ دونَ مبرّرٍ.

أُقول بِأنَّ العَارَ يكللُ جباهَنا ، وَالضّعفَ يَنهشُ أَجسادَنا ، وَالأعداءُ يتربّصونَ بِنا من كلِّ جانبٍ.

العرب في غفلةٍ عن فلسطين ، جرحٌ ينزف ونخوةٌ تُغتال .

أين نحنُ من قضية فلسطين؟ .

أين ضمائرُنا؟. ، أين نخوتُنا؟.

كيف نسكتُ على ما يتعرضُ لهُ شعبُنا الفلسطيني من مجازرٍ وحشيةٍ واعتداءاتٍ همجية؟ .

أطفالٌ تُقتلُ ، ونساءٌ تُغتصبُ ، ورجالٌ تُذبحُ ، وشعبٌ يُهدّمُ بيوتهُ ويُهجّرُ من أرضهِ.

ألا ندركُ معنى كلمة "شقيقة"؟ .

ألا نعلمُ أن فلسطين هي اختُنا؟ .

واللهِ لو أُصيبت أختي بمكروهٍ لأقمتُ الدنيا ولم أُقعدها، لقتلتُ من يؤذيها ، بدمٍ باردٍ ، مجرد إذيتها.

فما بالكم بما يحدثُ في فلسطين الحبيبة؟ .

ألا يُحرّكُ مشاعرَنا شيءٌ؟ .

ألا يُثخنُ جراحَنا ما نراهُ ونسمعهُ؟ .

إنّ الأمر لعظيم يا قوم !.

المُؤلمُ في الأمرِ أن أبناءَ شعبنا في مصرَ تركوا القضيةَ وراحوا يبحثونَ عن شيءٍ يُسمّى **مقاطعةً** ليختبئوا خلفهُ من مواجهةِ أنفسهم.

يا عارَنا!. يا سُخريةَ القدرِ بنا!.

ألاّ يَخجلُونَ من أنفسهم وهم يَرونَ ما يُصيبُ إخوانهم في فلسطين؟ .

ألاّ يُدركونَ أنّ المطلوبَ منهم أكثرُ بكثيرٍ من مجرّدِ **مقاطعةِ** بعضِ المنتجاتِ؟ .

المطلوبُ منهم هو الوقوفُ مع إخوانهم في خندقِ المقاومةِ، والمشاركةُ الفعالةُ في تحريرِ فلسطين.

لكنّهم فضّلوا الهروبَ من المسؤوليةِ ، والاختباءَ وراءَ ستارِ المقاطعةِ الوهميةِ.

إنّ هذهِ المقاطعةَ لا تُغني ولا تُفيدُ ، بل هي مجرّدُ ذرّ للعيونِ ، وسُلّكٍ للتملّصِ من الواجبِ.

فالمقاطعةُ الحقيقيةُ هي مقاطعةُ الاحتلالِ الإسرائيليّ نفسهِ، ومقاطعةُ كلّ من يدعمُهُ ويُساندهُ.

إنّها مقاطعةُ الصمتِ والخنوعِ، ومقاطعةِ التخاذلِ والانبطاحِ.

إنّها مقاطعةُ كلّ ما يُمثلُ الظلمَ والقهرَ والاستبدادَ.

فليُدركْ أبناءُ شعبنا في مصرَ أنّ مسؤوليةَ تحريرِ فلسطين تقعُ على عاتقِ الجميعِ ،

وأنّ عليهم واجبَ المشاركةِ الفعّالةِ في هذهِ المعركةِ المصيريةِ.

فلا خلاصَ من دونَ وحدةِ الصفِّ، ولا نصرَ من دونِ تضحياتٍ.

يُصغّرون الأمور رويدًا رويدًا، حتى تصبح بسيطةً في ظاهرها، وإن كان أثرها عظيمًا.

فأصبح غشاءً على العين، وحجرًا على القلب، ولا مبالاة في الدماغ.

وتسير الدنيا من حولنا، ونحن نسير خلفها كالحمير.

عفواً، لا أخطئ، بل هي حقيقة مغيبة عنكم، كباقي الحقائق التي لا تُدركونها.

أُدركُ أنّ ما أقوله قد يبدو غريبًا عليكم، وأنّه قد لا يتوافق مع معتقداتكم أو أفكاركم.

أوّلًا وآخرًا، النصر من عند الله، لا من عندكم أيّها المغفّلون!.

فلو شاء الله لجعل عليها سافلها، ولكنّه يُريكُم أنفسكم ، يُريكُم كيف أنتم ، ليدرك كلّ امرءٍ منكم قيمة نفسه.

سأُوضِّحُ هذا الأمرِ بأسلوبٍ مُبسَّطٍ لتسهيلِ فهمِهِ بشكلٍ أفضل.

تخيل عزيزي القارئ ، إن هناك أبًا زوج ابنته الجميلة ذات الصفات التي لا تُحصى ، لرجلٍ دنيءٍ خبيثٍ ، علمًا منه بذلك.

قد يكون سبب زواجها منه ثرائه أو امتلاكه للأملاك التي تكفي أحفاد أحفادها. الكل يبتعد عن هذا الرجل ، وقد نصحك الجميع بالابتعاد عنه ، إلا أن طمعك دفعك للتخلص من ابنتك دون معرفة السبب الحقيقي وراء ذلك. بدأ هذا الرجل بإهانتها وضربها ، المهم أنها اشتكت لأهلها ، ومن غير الشكوى كان ذلك بادِياً عليها. يرسلُ أبها وأخواتها التهديدات من دون تدخلٍ يذكر. يقوم هذا الشخص بالتطاول أكثر عليها ، ثم كسر جزءًا من عظامها.

يقف أهلها يبكون ويصرخون ، لكنهم لا يقدرون على شيءٍ لكونهم ضعفاء ، وهذا الشخص يعينهم بالماديات ، وأبها صاحب كرامةٍ، لن يؤذي من ساعده، لكنه سيترك ابنته تموت ببطءٍ جداً، عاديًا جدًا.

يقوم الأب والأخوات بمقاطعة هذا الشخص ومقاطعة امتداداته لهم ، ثم يتمادى أكثر ويكسر جميع عظامها.

وقف أهلها عاجزين عن فعل أي شيء، فكانوا ضعفاء بينما يملك هذا الرجل المال الذي يسيطر عليهم.

أخواتها ، من بين هؤلاء الإخوة:

أخٌ يُكنّ لأخته مشاعرَ حبٍّ عميقةً، لا تقتصر على المظهرِ فقط، بل تتغلغلُ إلى أعماقِ روحهِ. تُثيرُ هذه المشاعرُ في نفسهِ رغبةً قويةً في حمايتها ورعايتها ،

هو من يبكي بحرقةٍ من أجلها، مثلنا تماما كوننا نحنُ لا نمتلكُ غيرَ دموعِنا تجاه إخواننا المستضعفين في كل مكان.
إنّهُ يُدركُ أنّ دموعَهُ لن تُغيّرَ الواقعَ، لكنّها تُخفّفُ من وطأةِ الألمِ الذي يُعانيهِ، وتُساعدُهُ على التعبيرِ عن مشاعرهِ الدفينةِ.
وهناك أخي ذو سلطة لكنه متغفل عنها لا يهمه أمرها: يتمتع بمنصب مُهم يُتيح له مساعدتها، لكنه يُهمل واجباته تجاهها، ولا يُبادر بتقديم الدعم لها.
وأخي أخر ذو مصلحة: قد يكون مُتحيزًا لها بدافع مصلحة شخصية، أو سعياً لتحقيق غاية معينة ، أو من زوجها مثلاً.
وهذا هو حال جميع الدول العربية مع فلسطين...
ثم يبدأ في حرمانها من أبسط حقوقها، حقها في الطعام إن تأكل، ستموت ببطءٍ، وأهلها الرجال واقفون منبطحين الأيادي والرؤوس. تعلم يا قارئي أن لديها أبًا ذا جسمٍ قويٍّ ، لكنه ضعيفٌ -ضعيفٌ- من داخله ، وأخواتها كذلك. لو كانوا فقط تجمعوا لحماية أختهم، لقضوا على ذلك الرجل من أول يوم هو وأملاكه ، لكننا ضعفاء يا صديقي ، ضعفاء جدًا.
هذا حال جميع الشعوب العربية مع دولة فلسطين.
أَما باقِي العالمِ فينظُرونَ إلينا نظرَةَ سُخريةٍ، ونظرَةَ شفقةٍ تجاهَ شعبٍ فلسطين، فبعصُهُم بشراً في نِهَايَةِ المَطَافِ.

هيا بنا نُكمل ما بدأنا ....

ثانياً: سأذكرُ أهولَ ما رأته عيناي عبر هاتفي ، لقد رأينا عبرَ شاشاتِ هواتفِنا ما لا يُوصفُ من مشاهدِ الفظاعةِ والقسوةِ التي يمارسُها جنودُ الاحتلالِ الأوباشِ ضدّ شعبِكِ الصابرِ المُرابطِ. من أصغرِ طفلٍ فيكِ إلى أكبرِ كهلٍ ، لم يسلمْ أحدٌ من بطشِهم وظلمِهم.

ولكن لنذهبْ إلي تلكَ الْأَرْضَ هُنيرةً مِنَ الزمَنِ ، لنشاهد الأمرَ عن كُثبٍ أكثر ، ولا نستقيَ الخبرَ من خلفِ الشاشاتِ.

هذي أُمٌّ كما أمهاتنَا ، تعتنقُ أولادهَا الأشلَاءَ الذينَ دمرتهُمْ قنابِلُ الْعَدُو ، وهذا كفٌّ فَتَىً لم يتجاوزْ العشرينَ بعدُ، يمسكُ بِيَدِ أختهِ ويُشددُ أَزرهَا فِي وفاةِ أُمهِمَا ، وهذا أَبٌ مُصدومٌ منْ هولِ ما يَرَى ، جَمِيعُ أولادهِ أَنقضى نحبُهُمْ قبل أَن يُودعهُم ، خافَ في نفسهِ أَنْ يتأخرَ عليهمْ ، هَذِي فَتَاةٌ فِي الثَّانِيَةِ مِنْ عُمرِهَا ، تَتوشحُ عَلَى شفتيهَا طَيفُ ابتسامةٍ عذبةٍ ، فقد فارقت الْحيَاةَ .

وهذه أُمهَا تضحكُ لكونهَا استبشرتْ أَن ابنتهَا فِي الْجَنةِ ، وهي خيرُ بشرَةٍ للإنسانِ ، وتبكي في نفسِ الوقتِ عَلَى فِراقهَا.

مشاهِدُ لو عددناهَا مَا أحصيناهَا من كثرتهَا.

ولنرَى أيها القلبُ يصمُدُ أمام هذه المظلمةِ ، ولنَرَى أَيُّهَا الْعَقْلُ يستقيمُ والعينُ تَرَى الدِّمَاءَ تَسِيلُ عَلَى الْأَرْضِ كَالأَنْهَارِ، والإشلاءَ مُتناثرةً كأنهَا أوراقُ الشجَرِ في الخريفِ.

ولنصغي إِلَى صرخاتِ الْمُصابين وأنينِ الثَّكْلَى ، ولنشُم رائحةَ الحريقِ والموتِ التي تُفتتُ الأكبَادَ.

ولنسألن أنفُسنا: هل هذَا هُو الحق؟ .

هَل هذا هو الْعَدْلُ؟ .

كَلَّا، ألفَ مرةٍ كلا!.

هذا هُو الظلمُ بِأعظمِ ما يكُونُ، هذا هُو البغاءُ بِأقبحِ ما يكُونُ.

ها !!.

أُترَى الدماءَ تسيلُ كالأنهارِ، وتبصرُ أجسادَ البشرِ ممزّقةً، تشاهدُ ما بداخلِ الإنسانِ جليًّا.

تشاهِدُ الخوفَ في أعينِ الأطفالِ، والفقدَ في أعينِ الشّبابِ، واليتمَ في أعينِ البناتِ، والقهرَ في أعينِ الرجالِ.

وَلْنَتَذَكَّرْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا هُمْ إِخْوَتُنَا وَأَخَوَاتُنَا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، وَأَنَّ دَمَاهُمْ لَيْسَتْ رَخِيصَةً ، وَأَنَّ حَقَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الكَرِيمَةِ لَا يَسْعَهُ الْتَّغَاضِيَ وَلاَ الْصَّمْتُ.

وَلْنَكُنْ صَوْتَ الَّذِينَ لَا صَوْتَ لَهُمْ ، وَكَنْزَ الْمُضْطَهَدِينَ، يندَ المظْلُومينَ، حتى ينصرَ اللَّهُ الحق ويُزهقَ الباطلَ.

ولكنْ أنتَ تبكِي الآن لكونكَ إِنسَانًا من لحمٍ ودمٍ ، ضعيفًا جدًّا ، لا تقدِرُ على شيْءٍ سِوَى الْبُكَاءِ.

وأَنَا أَكْتُبُ وَأَبْكِي ، فَمَا أَعْجَبَ هَذَا الْأَمْرَ!.

لَئِنْ كَانَ لَا نَمْلِكُ سِوَى الْبُكَاءِ.

ثالثاً:

ألا هاتفٌ يُندي أمةَ المليارِ مسلم ؟.

أَمْ هَلْ أَنْتُمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ؟ .

أحلامُكُم جسد بِلا رُوحٍ، وأمالُكُم سرابٌ بأرضٍ قاحلةٍ! .

ألا ترونَ أَن الْعَدُو يتمكنُ من أرضكُمْ ، ويستبدِلُ دينكُمْ، وَيُذِل أعناقَكُم؟ .

إنّ ديننا الإسلاميّ الحنيفَ يدعونا إلى الوقوفِ مع إخواننا المسلمينَ في مواجهةِ الشدائدِ ، وإعانَتِهم في أوقاتِ الحربِ ، ونصرةَ المستضعفينَ منهم في فلسطينَ وفي كلّ بقاعِ الأرضِ.

فهم إخوتنا في الدين، وواجبنا علينا نصرتهم ومساندتهم في كلّ ما يمرّون به من محنٍ وابتلاءات.

فالمسلمون كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد.

وقد حثّنا ديننا الحنيف على ذلك في العديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

الأدلة من القرآن الكريم:

يقول الله عز وجل: **{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}** .

ونشهد أن المقاومة أعدت لجيش الكيان الصهيوني ما أرهبه وأرعبه، وقذف الخوف في قلوب جنوده وقادته العسكريين والسياسيين، ودفع المستوطنين إلى الهروب.

ويقول الله عز وجل: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}** .

ونحن نشهد أن الفلسطينيين والغزيين بصفة خاصة ظلموا ظلما شديدا على مدار 100 عام، وأخرجوا وهجروا من ديارهم بغير حق، وأن ما يجري في غزة وفي فلسطين هو سنة إلهية ماضية إلى يوم الدين، وأن النصر من عند الله عز وجل وأنه في نهاية المطاف للمؤمنين المجاهدين الصابرين.

ويقول الله عز وجل: **{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}** .

ونحن نشهد أن المقاومة لم تهن ولم تضعف في مقاومة الاحتلال، ونشهد أن ما تجرعه الاحتلال من آلام وهزائم وخسائر بشرية وسياسية وعسكرية واقتصادية، يفوق ما أصاب المقاومة والشعب الفلسطيني من جراح ومصائب،

وأن الكيان الصهيوني وداعميه يرجون السلامة،

وأن المقاومة في غزة تريد النصر والعزة أو الشهادة.

ويقول الله عز وجل: **{هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}** .

ونشهد أن المقاومة لم تهن ولم تحزن على ما جرى في طوفان الأقصى، ونشهد أن الكيان الصهيوني قد مسه القرح، وأن الله عز وجل اصطفى من أهل غزة آلاف الشهداء،

ونشهد أن طوفان الأقصى محص المؤمنين، وفضح المنافقين والصهاينة العرب على رؤوس الخلائق.

ويقول تعالى: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}** .

ونشهد أن الناس جمعوا للمقاومة الباسلة ولشعب غزة الأبي، وتكالب عليهم الغرب وتواطأ معه الشرق، ولم يزد ذلك المقاومة والشعب إلا صلابة وقوة وإيمانا، ونرجو من الله عز وجل أن ينقلبوا بنصر وعزة وتمكين.

ويقول تعالى: **{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}** .

ونشهد أن فئة قليلة من المجاهدين الصابرين في غزة غلبوا جيش الاحتلال الصهيوني في بضع ساعات، وغلبوا كل الداعمين له بالمال والسلاح منذ بدء العدوان على غزة وحتى الآن.

ويقول تعالى: **{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}** .

ونشهد أن الله عز وجل سدد رمي المقاومين، وأن أسلحتهم بدائية الصنع قد دمرت آليات الكيان الصهيوني ودباباته المتطورة ، وقنصت جنوده وقادته.

ويقول تعالى: **{مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۖ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.**
ونحن نشهد أن الله عز وجل نصرهم، في السابع من أكتوبر وبعده، ونتائج هذا النصر نجدها في آثار طوفان الأقصى العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإيمانية والتربوية.

ويقول تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} .**

ونشهد أن الله عز وجل يدافع عن المجاهدين ويدافع عن أهل غزة، فقد اجتمع عليهم الصهاينة ومعهم الغرب بقضه وقضيضه، وتواطأ معهم العرب والمسلمون، ومع ذلك لم ينالوا منهم ما سعوا وخططوا لنيله منذ السابع من أكتوبر وحتى الآن.

ويقول تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .**

ونشهد أن هناك طائفة من العرب والمسلمين، اتخذوا اليهود والنصارى أولياء، وتآمروا على إخوانهم في غزة، وأسلموهم للعدو الصهيوني الذي يعيث في الأرض فسادًا ويستهدف البشر والحجر، ويهلك الحرث والنسل.

ولكننا نؤمن بالوعد الإلهي بأن النصر للمؤمنين الذين ينصرون الله عز وجل ويتوكلون عليه، يقول الله عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}** .

الأدلة من السنة النبوية:

عن معاوية بن أبي سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"لا يزال من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك"**. صحيح البخاري .

ونحن نشهد على الخذلان العربي والإسلامي لأهل فلسطين ولإخواننا في غزة، والذي يصل إلى حد التواطؤ مع العدو الصهيوني على قتلهم بالحصار والجوع والمرض، ومنع وصول المساعدات الإنسانية، وتزويد العدو الصهيوني بالسلاح والطاقة والمواد الغذائية.

ونشهد كذلك على خلاف المنافقين والمرجفين مع المقاومة وداعميها على ما حدث في السابع من أكتوبر، وذلك على الرغم من أن الاعتداءات الصهيونية على الفلسطينيين وعلى العرب لم تتوقف منذ أكثر من 100 عام.

والأخوة الإيمانية يترتب عليها واجبات، ويأتي في مقدمتها واجب النصرة، ونحن مأمورون بالجهاد في سبيل الله بأموالنا وأنفسنا، وقد كفانا المجاهدون في فلسطين الجهاد بالنفس ، يقول الله عز وجل: **{انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} .**

وجابر بن عبد الله رضي الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلما في موضعٍ ينتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله اللَّه تعالى في موطن يحب فيه نصرته وما من امرئ مسلم ينصر مسلما في موضعٍ ينتقص من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره اللَّه في موطن يحب نصرته".**

ومن واجبنا إعانتهم وسد حاجاتهم، حتى يتحقق ويكتمل إيماننا بالأفعال، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع".**

قوله صلى الله عليه وسلم: **"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا".** رواه البخاري ومسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: **"من سمع نداء مستجير فلم يجبه لعنته الملائكة".** رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

وقولُهُ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: **"كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ".**

رابعاً :

عندما تنقضي الابتلاءاتُ والشهواتُ، يأتي الفرجُ على فلسطينَ وتحرير فلسطين يبدأ من أنفسنا ...

حقيقةٌ لا مفرّ منها، أنّ تحرير فلسطين من براثن الاحتلال الصهيوني الغاشم هو حلمٌ يراودُ كلّ عربيّ مُخلص.

ولكن، هل تساءلنا يومًا عن دورنا كأفرادٍ في سبيل تحقيق هذا الحلم؟ .

إنّ تحرير فلسطين مسؤوليةٌ تقعُ على عاتق كلّ فردٍ من أبناء الأمة، ولا يقتصرُ على جهود الحكومات والجيوش فقط.

فكلٌّ منّا يستطيعُ أن يُساهمَ في تحرير فلسطين، بدءًا من تغيير سلوكه الفرديّ ومُحاربة الظواهر السلبية في مجتمعه.

فمن أين نبدأ؟ .

البعد عن الحرام:

إنّ من أهمّ خطوات تحرير فلسطين هي الابتعاد عن كلّ ما حرّمه الله تعالى، من ربا، وفسق، وظلم، وغيرها من المعاصي.

فإنّنا عندما نُسيءُ إلى أنفسنا بالمعاصي، نُضعفُ إيماننا ونُصبحُ لقمةً سائغةً في أيدي أعدائنا.

التوعية والتثقيف:

يجبُ علينا أن نُحسّنَ من وعيِنا وثقافتنا، وأن نُنشرَ الوعيَ بين الناس حول مخاطر الاحتلال الصهيوني وحقّنا في تحرير أرضنا.

الابتعاد عن الشهوات:

الشهوات هي رغباتٌ فطريةٌ تُحرّكُ الإنسان، ولكنّها قد تُصبحُ سيفًا ذا حدّين إذا لم يتمّ التحكمُ فيها بشكلٍ صحيح.

تُضعفُ الإيمان وتُبعدُ الإنسان عن طريق الهدى والصلاح.

تُلقي بالإنسان في براثنِ الرذائلِ والآفاتِ.

تُضيّعُ وقتَ الإنسان وتُشغلهُ عن العباداتِ والأعمالِ الصالحةِ.

تُؤدّي إلى الشعورِ بالندمِ والأسفِ بعد ارتكابِ المعصيةِ.

فالشعوبُ التي تُغرقُ في الشهواتِ وتُهملُ القيمَ والأخلاقَ لا تستطيعُ أن تُقاومَ الظلمَ والاحتلالَ.

الشدائدُ الفتن، والامتحاناتُ والمحنُ لا يخلو منها أحدٌ، فهي إمَّا أنْ تكونَ عامةً على الأُمَّةِ فقد ابتليَتْ بأعدائها، وإمَّا أنْ تكونَ خاصةً في بعض الأفراد، فكلٌّ على قَدْرِه، وعلى الإنسانِ أنْ يُوكِلَ أمرَه إلى الله،

فيا أصحابَ الشدائدِ والابتلاءاتِ لا تيأسوا؛ فإنّ فرجَ الله قريبٌ آتٍ، وقدْ قال سبحانه في أوائل سورة العنكبوت:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . وقال سبحانه: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

ألا واعلموا؛ أنَّ الابتلاءَ والشدَّةَ عُسْرٌ، وأنَّ الفرجَ والانفراج يُسْر، فالله سبحانه وتعالى جَعَلَ مع كلِّ عسْرٍ يُسرين، فقال جلَّ جلاله:

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ما هو المطلوب؟ . **﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .**

هذا هو المطلوب من العبدِ أثناءَ الشدَّةِ والعُسْرِ، ووقوعِه في العُسر؛ أنْ يُجهِدَ نفسَه في العبادة، ويكثِرَ الرغبةَ في الإخلاص لربِّه.

وقد يتأخَّر الفرج عن بعض الناس؛ ابتلاءً وامتحانًا، ليزدادَ المبتلَى تضرُّعًا وإنابة، وذكرًا ودعاءً وعبادةً، لتزدادَ الجائزةُ على ذلك، ففرَجُ اللهِ آتٍ لا محالةَ.

وقد يستغرقُ انتظارُ الفرجِ سنين، فالآن ابتُلِيت الأمَّة بأعدائِها سيطروا عليها، فظلموا أهلها، ونهبوا خيراتِها، وامتصّوا مقدراتِها، فمتى تزول هذه البلوى؟ .

قال سبحانه: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ .

فَما علينا إلاّ أنْ نطيعَ اللهِ سبحانه، ونُخلِصَ له العبادةَ والذِّكْر، والاستغفارَ والدعاء، حتى يأتيَ نصرُ الله عزّ وجلّ.

الإيمان بالنصر:

أخيرًا، يجبُ أن نُؤمنَ إيمانًا راسخًا بالنصر، وأن نُدركَ أنّ تحرير فلسطين هو وعدٌ إلهيٌّ لا محالةَ أن يتحقّق.

فإنّ الله تعالى وعدَ عباده المؤمنين بالنصر على أعدائهم، قال تعالى: **"وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ".**

لا شك أن زمننا الحالي يموج بالعديد من التحديات والابتلاءات، بدءًا من الأزمات السياسية والاقتصادية، مرورًا بالفتن الاجتماعية والفكرية، وصولًا إلى الكوارث الطبيعية والأوبئة.

ولكن، هل يمكننا القول أن هذا الزمان هو زمنٌ فريدٌ من نوعه من حيث كثرة الابتلاءات؟

في الواقع، إن التاريخ مليءٌ بالأحداث الصعبة والمؤلمة. فقد واجهت البشرية عبر العصور العديد من الحروب والكوارث الطبيعية والأوبئة.

ولكن، أُؤكّد لك أيّها القارئ الكريم أنّ الابتلاءات لا تكمن في الزمن الذي نعيشه، بل في نفوسنا.

لا قيمة تُذكر لمجرد مقاطعة وهمية ولا قيمة لبعض التبرعات التي لن تُجدي نفعًا سوى لفترة وجيزة.

فلو تخيلنا يا عزيزي خسارة الصهاينة الملعونين للملايين، ماذا بعد؟. أليس الأهم هو ما خسرناه نحن؟. لقد فقدنا إخواننا، وخسارة إخواننا هي الفاجعة الحقيقية، فالأرواح لا تُعوض، بينما المال يمكن تعويضه بل ويزداد.

فأين نحنُ من كلِّ هذا؟.

إنّ شهداءَ فلسطينَ قدْ نالوا شرفَ الجنةِ بشهادتهم، فهم ضحّوا بأرواحِهم من أجلِ تحريرِ أرضِهم وبلدِهم، ولكن ماذا عنّا؟ .

ماذا فعلنا من أجلِ نصرتِهم؟.

للأسفِ، لم نُقدّمْ الكثيرَ. بل إنّنا تقاعسنا عن نصرتِهم، وتركناهم يُواجهونَ مصيرَهم المأساويّ وحيدينَ.

أفيقِنا على واقعِنا المُؤلِمِ، ونُدركُ تقصيرَنا الفادحَ تجاهَ شهداءِ فلسطينَ العظامِ.

الحمد لله الذي منّ عليكِ بستر عيونكِ عن رؤية ما آل إليه حالُ الناس في زماننا هذا. لقد كنتِ مثالاً للقاضية العادلة، تدعمين الحق وتُنصفين المظلوم. كنتِ إنسانةً بحقّ الكلمة، فكثيرٌ من الناس يحملون اسمَ الإنسان دون أن يتصفوا بصفاته.

ونحن جميعًا؛ يا من فرطنا في جنب الله، فأكثرْنا من السيئات، وفعلْنا الذنوب، وارتكبْنا المعاصي، واقترفْنا الخطيئات، فإذا رجعنا إلى الله سبحانه وتعالى، فسيقبَلُنا، وإن استغفرناه سيغفرُ لنا، وإنْ تُبْنَا إليه فسيقبلُ توبتَنا، وإنْ استجرْنا به من النارِ أجارَنا، وإنْ سألناه الجنةَ أعطانا إياها.

إنّنا بحاجةٍ إلى أن نُفيقَ من غفلتنا يا عزيزي القارئ قبل أن يفوت الأوان.

" ٣ من شهر نوفمبر ، سنة ٢٠٢٣ ... "

أُحسّ بكِ دائمًا قريبةً من روحي ، قريبةً جدًّا ...

سلامٌ عليكِ يا حبيبتي، سلامٌ بطولِ الأميال التي تفصلُ بيننا وبطولِ الليالي في غيابكِ، أبعثُ إليكِ رسالتي وتحيَّتي من هنا على الأرض ، إليكِ هناك بين السحب ، على أمل أن تتغلب على قيودِ الدنيا وتصل إليكِ ، وأن تتحدى قواعدَ اللغة وتنالُ رضاكِ.

أكتبُ إليكِ هذه الرسالةَ بدموعِ الحزنِ على فراقِكِ ، وبدمعِ الفرحِ لِلقياكِ القادمِ في جنانِ الخلدِ.

طالَ غيابُكِ عن عينيَّ ، وهجر صوتُكِ أذنيَّ ، وزيّنَ جمالُكِ أحلامي. فاتخذتُ من النومِ مهربًا من الواقع ، حتى تتحقق غاياتي ويهدأُ حنيني إليكِ قليلاً. في أحلامي ، يغازلُ طيفي طيفَكِ ، ويُنيرُ نورُ وجهكِ ظلمةَ خيالي. وتتلاشى المسافات بيننا ، وتختفي وعورةُ الطرقِ التي تفصلنا، وتُنسى تلك المقاييس التي تحكم عالمَ اليقظة. فالمسافةُ هنا تُقاس بكمِّ الشوق وانشغال الفِكر، وشوقي إليكِ لا تُحصيهِ الأعداد، وفكري لا يشغلهُ سواكِ.

ولكن مع ذلك ، أفتقدُكِ في واقعي. فشوقي إليكِ لن يفنى ما لم تُطابِق رؤى الأحلامِ حقائقَ الواقع ، وتُصبحِ الأطيافُ حقيقةً.

" ٢٦ من شهر يناير ، سنة ٢٠٢٤ ...."

لا شيء يخلدُ في الدنيا ، فكلُّ شيءٍ هالكٌ ، حتى الروحُ ستفارقُ الجسدَ يوماً ما....

اليومَ ، بلغَ أذانٌ وأستبرقُ الثالثةَ عشرَ من حُقبِ الحياةِ، فَفَاتَ العُمرُ سريعًا ، كأنّه لم يكنْ. لقد كَبُرا يا عزيزتي دون وجودِكِ ، وكانَ غيابُكِ ذا أثرٍ عظيمٍ في قَلوبهم.

يفتقدون وجودكِ يا حبيبتي في كلّ مناسبةٍ ، في كلّ فرحٍ ، في كلّ حزنٍ.

و الله ما رأيتُ من خيرٍ أقدمهُ لهم في يومٍ كهذا ، سوى أن نأتي لنجلسَ معكَ عندَ قبرِكَ.

فالإنسانُ يَحتاجُ إلى أمّهِ دائمًا ، مهما بلغَ من العُمر ، ومهما نضجَتْ أفكارهُ ، ومهما واجهَ من صعابِ الحياةِ ، يظلُّ بحاجةٍ دائمةٍ إلى حضنِ أمّهِ الدافئِ ، إلى كلماتِها المُعزّيةِ ، إلى مشاعرِها الحنونةِ.

وإنْ كانَ الأبُ بمثابةِ خاتمٍ في الأصبعِ ،

جئنا وجلسنا كما اعتدنا عند قبرِكِ الطاهرِ ، جئنا لنقرأَ علي روحكِ الطاهرة القرآنَ الكريمَ ، ختمةً كاملةً ، مُقسمةً بيننا نحن الثلاثة ، كلٌّ منّا يقرأُ عشرةَ أجزاءٍ ، وندعو لكِ ،

بعدَ الانتهاءِ من القراءةِ ، جلسنا نتحدثُ عن أهدافِنا وإنجازاتِنا، أخبرتكِ عن كلّ ما حدثَ في حياتِنا منذ آخرِ مرّةٍ جئنا فيها إليكِ.

بارك الله في أمّي وأختي، جزاهما الله خيرًا عن كلّ ما يقدّمانه لي من مساعدةٍ ودعمٍ. فأنا ممتنٌّ لفضلهما العظيمِ، ولِوقوفهما إلى جانبي في كلّ الأوقاتِ.

وَلَقَدْ كانَ أهلُكِ يا حبيبتي خيرَ مُعِينٍ لي منذ يومِ موتكِ إلى اليومِ. فقد وقفوا إلى جانبي في أصعبِ الظروفِ، وقدموا لي كلّ ما أحتاجُهُ من عونٍ ودعمٍ معنوي.

دعينا نتحدّث عن أبنائكِ قليلاً ، سأبدأ بأذانَ يا عزيزتي ، أنتِ منْ اختارَ اسمَه ، شبيهاً لكِ في ذكاءِكِ الفائقِ ، وطيبةِ قلبِكِ التي لا حدودَ لها يَتَسَمّى أذانُ بعقليةٍ عمليةٍ تُذكّرُنا بكِ ، يا نورَ عيني.

وإمّا أستبرقٌ، فقد سمّيتها أنا بنفسي ، وتشبهُني كثيرًا ، تتَعَامَلَ بِقَلْبِهَا ، حَنُونٌة وَقَرِيبٌة ،تشبهُني إلى حدٍّ جعلني أتساءلُ: **أهي حقًا ابنتي أم هي أنا في صغري؟! .**

فكأنّها مطابقةٌ لي في كلِّ شيءٍ ، في مظهرها وخلقها ، وخُلُقها.

الهبةُ من اللهِ ، وهو سبحانهُ وتعالى من وهبَ أبناءنا أعظمَ الصفاتِ ، ألا وهي الهدى.

فقد رزقهم اللهُ تعالى عقولًا نيرةً ، وقلوبًا عامرةً بالإيمانِ والتقوى، ونفوسًا طاهرةً تسعى إلى الخيرِ والبرِّ.

الحياةُ رحلةٌ ومُبتغى، لكلٍّ منّا دربٌ يَسلكُهُ، ونصيبٌ يَحصُلُهُ.

كلُّنا ننالُ أربعةَ وعشرينَ قيراطًا من حظِّ الحياةِ ، نُنفقُها كيفما شئناً ، نسعى ونجاهدُ ونُكافحُ من أجلِ تحقيقِ أحلامنا ،

منّا من يُوفّقُهُ اللهُ تعالى فيُرزقهُ الغنى ، فيُعيشُ حياةً مُترفةً ، لكنّهُ قد لا يَجدُ الأمانَ في تلكَ الحياةِ.

ومنّا من يُرزقهُ اللهُ تعالى الفقرَ، فيُعيشُ حياةً بسيطةً، لكنّهُ يَجدُ فيها الأمانَ والسّكينةَ.

منّا من يَمُنّ اللهُ عليهِ بالصّحةِ والعافيةِ، لكنّهُ قد يُحملُ همومًا وأحزانًا في روحهِ.

ومنّا من يُبتليهِ اللهُ تعالى بالمرضِ، لكنّهُ يُبقي لهُ روحًا صافيةً ونفسًا راضيةً.

منّا من يفقدُ عزيزًا غاليًا ، فيُصيبهُ الحزنُ والألمُ ، لكنّهُ يُؤمّنُ إيمانًا راسخًا بقضاءِ اللهِ تعالى وقدرهِ ، فيُثيبُهُ اللهُ تعالى بعزيزٍ آخرَ يُؤنسهُ ويُواسيهِ.

أمثلةُ الحياةِ لا تُحصى ، وكلٌّ منها درسٌ وعبرةٌ.

لا شكّ أنّ غيابكِ لن يُعوّض ، لكنهما يُؤنسانِي.

وبينما نحن جالسون على القبر نسقي غرسه، إذْ لمحتُ نفس الصبي الذي آويتهُ بالأمس ، هو أبوهُ!.

أمسِ، حينَ زرتُ مُقامكَ يا حبيبتي ، أَلمَحْتُ جنازةً تَسيرُ في الدروبِ المقابلَةِ ، تَحملُ جثمانَ شابةٍ ، يَبدو من مَلامحِ ابنِها ذي العشرةِ أعوامٍ ، وأبيهِ الجالسِ أمامَ القبرِ حزينًا ، أنّها كانت في سِنّكَ يا حبيبتي ، ففاضَتْ من عينيّ الدموعُ حارقةً، وتَمزّقَ قلبي ألماً وحسرةً ، تذكّرتُ يومَ رحيلِكِ يا حبيبتي، وَقَدْ فارقْتُ الدنيا بِكُلّ ما فيها ، كان هذا الطفل واقفاً يبكي بصمتٍ، كأنّ الدموعَ قد جفّتْ من شدّةِ الحزنِ ،

وَحينما أدخلوا أمهُ إلى لحدِها الأخيرِ، انفجرَ بركانُ حزنِهِ ، فَصرخَ بأعلى صوتٍ: **"لاَ أُريدُها أنْ تذهبَ! .**

أُريدُ البقاءَ معها!" .

فَحاولَتْ أيادٍ حانيةٌ أنْ تُهدّئَهُ، وتُقنعهُ بأنّ أمّهَ قد رحلتْ إلى دارِ الخلودِ ، ولكنّهُ لم يَستمعْ إليها ، وظلّ يُصرخُ ويُبكي بحرقةٍ ، كأنّ جزءًا من روحهِ قد سُلِبَ منهُ معَ رحيلِ أمّهِ.

جلسَ الطفلُ أمامَ القبرِ المغلقِ ، ينظرُ إليهِ بنظراتٍ حائرةٍ ، لا يصدّقُ أنّ أمّهَ التي كانت بالأمسِ تُناغيهِ وتُدلّهُ ، قد أصبحتْ الآنَ تحتَ طبقاتِ الترابِ.

لقد فقدَ هذا الطفلُ سندَهُ في الحياةِ ، وظلّتْ دموعُهُ تسيلُ على خدّيهِ ، كأنّها تُعبّرُ عن ألمِهِ وفقدانهِ الجسيمِ.

وقفتُ من بعيدٍ أُراقبُ المشهدَ ، قلبُهُ يعتصرُ ألمًا وحزنًا ، دموعُهُ تسيلُ على خدّيهِ كالسيلِ ، لا يُصدرُ صوتًا ، لكنّهُ

ينطقُ بلسانِ الحالِ.

انفضّ الجمع بعد أداء واجب العزاء ، ولم يبقَ سوانا ، نحن الثلاثة ، أنا والطفل و أبيه ، فَاقتربتُ منهُ بخطواتٍ حذرةٍ ، واقفت بجانيهِ ، ووضعتُ رأسهُ داخل حضني ، لأُواسِيهِ في مصابهِ الجللِ ، وأُخفّفَ عنهُ بعضَ ثقلِ الحزنِ.

لا يعرفُني ، ولا أعرفُهُ ، لكنّ الفقدَ جمعَنا معًا ، فقدُ الأحبّةِ ، فَقلتُ لهُ بصوتٍ خافتٍ: **"لا تحزنْ يا بنيّ ، فاللهُ يُؤنسُ وحشتَكَ ، ويُعِينُكَ على مُصيبتِكَ ، واعلمْ أنّ أمّكِ الآنَ في جنةٍ خضراءَ ، تنعمُ فيها بالأمانِ والسعادةِ ، فَكُنْ رجلاً صابرًا محتسبًا ، وَاعملْ جاهدًا لتُسعِدَ أمّكِ في قبرها ، ولتُخلّدَ ذكراها بأجملِ الأعمالِ."**

وَظللتُ أُواسِي الطفلَ بكلماتٍ بسيطةٍ ، حتى هدأَ قليلاً ، وَنامَ في حضني مُنهكًا من التعبِ والحزنِ.

رفعتُ رأسهُ بين يدي ، وَنظرتُ إلى وجههِ ، فَرأيتُ علاماتِ الاستسلامِ عليهِ ، شعرتُ بدفءِ جسدهِ الصغيرِ بين ذراعيّ ، فحملْتهُ على ذراعيَّ ، فاستأْذنتُ من أَبِيهِ ، وحملتهُ إلَى سيارتي ، ووضعتهُ في مقعدِ السيارةِ الخلفيّ برفقٍ ، ورجعتُ إلَى أَبيهِ الذي كانَ جالسًا أمامَ قبرِ زوجتِهِ ، مُتكأً علَى ركبتيهِ ، ووجههُ مُغبَر بالترابِ، وعينَاهُ مُحمرتانِ مِن البُكاءِ ، وقفتُ بجانبَ الأبِ ، ووضعتُ يدي على كتفِهِ

تذكرتُ موتَكِ وكيفَ كانتْ هيئتي ،
بعدَ لحظاتٍ ، رفعَ الأبُ رأسَهُ ونظرَ إليَّ ، وقالَ بصوتٍ مبحوحٍ: **"شكرًا لكَ."**
فمددتُ يدي لمساعدتهِ على النهوضِ منْ على الأرضِ ، نهضَ الأبُ منْ على الأرضِ، ونفضَ الترابَ عنْ ملابسهِ، ثمَّ قالَ: **"يجبُ أن ننطلقَ الآنَ. لا أُريدُ أنْ أُبقيَ الطفلَ وحيدًا لِفترةٍ أطولَ."**
سرتُ معَهُ إلى السيارة ، وفتحْتُ لهُ البابَ الخلفيّ، فحملَ الطفلَ بين ذراعيهِ ، وضمَّهُ إلى صدرِهِ.
أدرتُ محركَ السيارةِ، وانطلقتُ نحوَ بيتهم الذي أخبرني عنهُ هذا الرجلُ الطيب ، سادَ صمتٌ حزينٌ داخلَ السيارةِ ، لا يقطعهُ سوى صوتُ تنفسِ الأبِ الثقيلِ، وشهقاتِ الطفلِ النائمِ.
أوصلتهم إلى وجهتهم ، فنزلَ الأبُ منْ السيارةِ حاملًا طفلهُ ، وشكرني على مساعدتي لهِ. ابتسمتُ ابتسامةً حزينةً، ورددتُ عليهِ الشكرَ ، ثمّ انطلقتُ بسيارتي عائدًا إلى بيتي.
واليومَ ، حينما صادفتُهُمْ في المقابرِ، أخذتُ ابني أذانًا ليتعرّفَ على الطفلِ ، لعلّه يُخفّفُ من وطأةِ الأمرِ قليلاً ، كونهُ أمّهُ متوفيةٌ مثلهُ ، وطرقتُ استبرقًا تسقي الزرعَ عند قبرِ أمّها.
كان القبرانِ متجاورينِ ، تفصلهما مسافةٌ نحو عشرينَ خطوةً.

وبينما كنا نسيرُ متوجهينَ نحوهمُ ، أخبرتُ أذانًا عن موتِ أمّ هذا الطفلِ كي يواسيهِ ويساندهُ ، وكم كان أهلًا لهذا الأمرِ.
كان الأبُ واقفًا أمامَ القبرِ، أمّا الطفلُ فكان جالسًا على الموتوسيكلِ الخاصّ بالأبِ ومتكئًا على ركبتيهِ ويبكي.
ألقينا التحيةَ عليهم، فتفاجأوا بوجودنا ، ارتبك الأبُ قليلًا، ثم ردّ التحيةَ علينا بِبَسَمَةٍ حزينةٍ. تقدّمنا منْهُ وَمِنْ ابنهِ ، وصافحنا الأبَ ، بينما ظلّ الطفلُ مُنخفضَ الرأسِ ، اتّجه أذانُ إليهِ وجلسَ بجانبهِ ، فاحتضنهُ بحنانٍ وبدأ يُحادثهُ بكلماتٍ مُهدّئةٍ. في البداية، كان الصمتُ يخيّمُ على المكانِ ، ولم ينبسِ الطفلُ ببنتِ شفةٍ. لكن مع مرورِ الوقتِ ، بدأتْ كلماتُ أذانِ تُؤثّرُ في نفسِ الطفلِ ، فرفعَ رأسهُ قليلاً ونظرَ إليهِ بعينينِ دامعتينِ.
استمرّ أذانُ في التحدثِ معَ الطفلِ ، مُرويًا لهُ كيف تجاوز موتَ أمهِ ، وأنّ الرجالَ لا يبكونَ ، وأنّ عليهِ أن يكونَ قويًّا. تدفّقتْ كلماتُ أذانٍ كالمطرِ اللّطيفِ على قلبِ الطفلِ الجريحِ، فبدأ ينصِتُ باهتمامٍ ، وتسلّلَ الأملُ خيوطهُ الدقيقةُ إلى روحهِ المُثخّنةِ بالحزنِ.
بدأَ أذانُ يتحدثُ معَ كريمٍ بصوتٍ هادئٍ مُطمئنٍ، قائلاً: **"أعلمُ يا كريمُ أنّكَ حزينٌ جدًّا على فقدانِ أمّكَ ، وأنا أُشاركُكَ حزنَكَ، لقد فقدتُ أمّي أنا أيضًا عندما كنتُ في سنّكَ تقريبًا ،**

وأعرفُ كمْ هو صعبٌ ذلكَ الشعورُ."

فأضافَ أذانُ: **"أنا لمْ أتجاوزْ موتَ أمّي بِسهولةٍ. لقد مررتُ بفترةٍ صعبةٍ جدًّا ، لكنّني معَ الوقتِ تعلّمتُ كيفَ أتعايشُ معَ حزني. لقد ساعدني على ذلكَ أصدقائي وعائلتي ، وقررتُ أنْ أكونَ قويًا لأجلِهِمْ ولأجلِ نفسي."**

سألَهُ أذانٌ بصوتٍ حنونٍ: **"ما اسمُكَ يا صديقيّ؟ ، أنا إسمي أذان".**

قالَ بصوتٍ خافتٍ: **"أهلاً أذان ، اسمي كريم".**

ابتسمَ أذانٌ بلطفٍ، وقالَ: **"كريمٌ ، اسمٌ جميلٌ كصاحبِهِ. لِنَكُنْ أصدقاءَ يا كريم من الآن فصاعدًا".**

ردّ كريم بلطفٍ: **"نعم ، لنكن أصدقاء."**

ابتسمَ أذانٌ قليلًا، وقالَ: **"وأنا أعلمُ أنّكَ تستطيعُ أنْ تفعلَ الشيءَ نفسهَ يا كريمُ ، أنتَ طفلٌ ذكيٌّ وقويٌّ ، ولديكَ قلبٌ طيبٌ ، ستتمكّنُ منْ تجاوزِ هذهِ المحنةِ بِالعزيمةِ والصبرِ."**

يبتسمُ كريمٌ خجلاً ، ويقولُ: "شكرًا لكَ يا أذان على لطفكَ ."

كنتُ أنا وأبوهُ نرقبُ المشهدَ من بُعيدٍ ، ومن ذلك اليومِ صارا صديقينِ إلى يومنا هذا.

فأتى أبوهُ واقتربَ منهما ، وجلسَ بجانبِ ابنهِ. فانطلقنا أنا و أذان عائدينَ إلى استبرقٍ لأخذِها ، لنذهبُ إلى البيتِ.

وانتهى اليومُ ....

٢٠٢٤/ ٦/١٧....

ولا أُطيقُ أن أُفكّرَ في يومٍ أُصبحُ فيهِ وحيدًا دونَكِ ....

هي ميزاتٌ لأُناسٍ دون غيرهم فهم شذور الفوائد في نحور الخرائد ، و أن أصابِعَ اليدِ الواحدةِ خَمسة ، لَا يُعَدُّ العادُ عليها في بيانِ المستحِبِّ من المُفيدِ إلا للندرةِ بلا نظيرٍ.

وأن المعالَاةَ ليستْ مِما يُقر لَهُ.

فَمَا يَكْتُبُهُ قَلَمِي هُوَ الْإِحْسَاسُ الْفِطْرِيُّ الَّذِي يَسْكُنُ فِي أَطْرَافِ الْعَيْنِ ، لَا يبرحُهَا خجلا من مُواربَةٍ ، واليومَ ليس كأي يومٍ مضى،

أكتب إليكِ اليومَ.... مُتخيلًا إيَّاكِ أمام عينيَّ، وكأنَّكِ لم ترحلي عنِّي أبدًا.

أكتب إليكِ اليومَ في مُذاكّرتي، كما لو أنّكِ ما زلتِ بيننا، كأنّ رحيلكِ لم يكنْ إلاّ حلمًا عابرًا. لا أفكّرُ في أحدٍ سوى أنتِ وأبنائنا، فأنتمْ شغلُ قلبي وشغلُ بالي.

يمرّ عامٌ تلو عامٍ ، لكنّ ألمَ الفراقِ لا يزالُ حارقًا في قلبي. لا يزالُ شعورُ الغيابِ يخيّمُ على أيامي ، ويُثقلُ روحي بالحزنِ والألمِ.

أكتبُ إليكِ في هذهِ السطورِ ، مُتَحَدِّثًا إليكِ كما كنّا نتحدَّثُ في الأيامِ الخوالي ، قبلَ أن تُفارقينا دارَ الدنيا.

أفتقدُ كلماتِكِ الرقيقةَ ، ونظراتِكِ المُحبَّةَ ، وابتسامتكِ الدافئةَ، التي كانت تُنيرُ أيَّامنا.

أفتقدُ ضحكاتِكِ المُعلِّقةَ في أرجاءِ المنزلِ ، وحركاتِكِ الرشيقةَ، ونشاطِكِ الدؤوبِ.

أفتقدُ كلَّ شيءٍ فيكِ، يا حبيبتي، وكلَّ ذكرياتِنا الجميلةِ التي عشناها معًا.

أعلمُ أنّكِ الآنَ في مكانٍ أفضلَ ، بعيدةً عنِ آلامِ الدنيا وأحزانِها.

أدعوُ للكِ بالرّحمةِ والمغفرةِ، وأنْ يُسكنَكِ اللهُ فسيحَ جنّاتهِ.

أنتِ حاضرةٌ دائمًا في قلبي...

اليومَ، بعدَ عشرِ سنواتٍ من رحيلكِ ، أتممتُ ستّةً وثلاثين عامًا.

لكنّي أشعرُ أنّني كبرتُ مائةَ عامٍ في غيابكِ.

كلّ يومٍ يمرُّ عليّ هو بمثابةِ عمرٍ دونكِ.

غزا الشيبُ شعري ، وبدأتُ أُحسّ بثقلِ السّنينِ على كاهلي. لكنّ ما يُؤلِمُني أكثرَ هو غيابُكِ عنّي ، هو فراغُكِ في حياتي.

أفتقدُكِ يا حبيبتي في كلّ لحظة ، في كلّ نفس أتنفسه ، في كلّ خفقةٍ لقلبي.

أكتب إليكِ اليومَ وأنا قلبي مثقلٌ بالهمّ، فقد زرتُ طبيبَ القلب

منذ يومينِ، لم يُبشرني بالخيرِ، فحالتي الصحيةُ ليست مُستقرّةً.

لا أُخفي عليكِ أنّني لستُ مُصدومًا من هذا الخبرِ، فشخصٌ مثلي قلبه يُؤلمهُ يومياً منذ رحيلِكِ، فكيف لا يتأثرُ؟ .

لكنّه تأثرَ وبشدةٍ.

لن أخفي عليكِ شعوري بالسعادةِ والحزنِ في نفسِ الوقتِ.

سأبدأُ بالسعادةِ أولاً، فأظنّ أنّكِ خمنتي صحيحًا، فمرضى القلبِ لا يعيشونَ طويلاً ، وسأتي إليكِ سريعاً.

لكنّني حزينٌ وخائفٌ في نفس الوقتِ ، فأخشى أن أفعلَ مثلكِ وأغادرَ هذه الدنيا مُبكّراً.

أعدكِ أنّني سأهتمّ بصحتي جدًّا، ولن أُهملُ نفسي أبدًا. سأفعلُ كلّ ما في وسعي للعيشِ لأطولِ فترةٍ مُمكنةٍ، لحين الاطمئنانِ عليهما أشدّ الاطمئنانِ.

مُعَلَّقَةٌ فِي ثَنَايَا الْمَسْمَعِ
يُرَنِّمُهَا الْشَّوْقُ وَيَحْكِي أَنَّاتِ الْأَفْئَادِ
وَأَضْلَعِي مِنْ هَذَا الشَّوْقِ تَتَفَتَّتُ
كَأَنَّهَا بَيْنَ أَنْيَابِ الْوُحُوشِ الْعَادِ
وَاللَّهِ إِنَّ الشَّوْقَ فَاقَ تَحَمُّلِي
وَلَكِنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَسْمَى صِفَاتِ الْعَابِدِ
يَا شَوْقُ رُفْقًا بِالْفُؤَادِ أَلَا تَعِي
أَنَّهُ مِنْ هَذَا الْحُبِّ يَتَأَلَّمُ وَيَتَوَجَّعُ
يَا زَهْرَتِي إِنْ مَرَّ اسْمُكِ عَابِرً
يَزْدَادُ مِنْ فَرْطِ الْحَنِينِ تَوَجُّعِي
حَاوَلْتُ أَنْ أُخْفِي هَوَاكِ وَكُلَّمَا
أُخْفِيَهُ فِي الْقَلْبِ فَاضَتْ أَدْمُعِي
لَكِنَّ رُوحَكِ لَمْ تَغِبْ دَوْمًا مَعِي
وَكَأَنَّهَا بَيْنَ ضُلُوعِي تَتَنَفَّسُ
رَحِمَكِ اللَّهُ يَا رَفِيقَةَ الرُّوحِ
فَقَدْ كُنْتِ لِي نُورًا فِي ظُلْمَةِ الْوُجُودِ

شكر خاص

« صاحبةُ الروحِ النقيةِ أمي ، ذا الوجهِ الطيبِ أبي ، بركةُ البيتِ جدتي ، العظيمُ رحمهُ اللهُ عليهِ جدي ، مصدرُ الدعمِ أخواتي ، دفءُ عائلتي ، جميعُ أهلي ، أصدقائي صديقٌ ، صديقٌ ، إلي جميعِ من أحبني بصدقٍ و واقفٌ إلي جانبي ، أنتم خيرُ من عرفتُ ، جزاكمُ اللهُ كلَّ الخيرِ ».

كاتب :.

" إلى من وددتُ لُقياها ، لكنا ذاهبةٌ إلى جنةٍ عاليةٍ قطوفها دانيةٍ ، يا من هجرتِ دار الفناء إلى دار البقاء، يا من فارقتِ الأحباب إلى رحاب الأبرار ، سيرتكِ الطيبة و قصتكِ المؤثرة هي ما دفعتني لإخراج هذا العمل. وليشهد الله أنني تأثرتُ بموتكِ تأثراً كبيراً ، لذالك أكتبُ لعله يخفّف الحزن قليلاً.

يا من سبقتِنا إلى دارِ الخلدِ ، أنتِ الآنِ في كنفِ اللهِ ، آمنًه مطمئنًه ، في نعيمٍ لا مثيلَ لهُ ، في جنةٍ يفيضُ خيْرها ، ويسعدُ فيها أهلُها إلى الأبدِ ، رحماكِ الله يا دكتورتي ، وأن يُدخلكِ فسيحَ جناتهِ ، وأن يُلحقنا بكِ في دارِ الخلدِ ، وإنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ .... "

٢٠٢٤/٧/٢٥

أماني محمد سعيد.

« سَلامًا وَ حَبًا لِلْجَمِيعِ . »

يا صاحب الودّ ....

لنتحاورَ قليلاً فيما يفيدُنا ويثري عقولَنا، ولننهلْ من معينِ المعرفةِ ما يُنيرُ دروبَنا ويُرشدُ خطانا.

وهنا تنتهي روايتنا، تاركةً وراءها شعورًا بالأسف على ضياع ساعتين من وقتك الثمين.

في كلا الحالتين، سواء قرأتَ أم لا، فقد ضاعَ وقتُكَ سدىً.

وقتُكَ ضائعٌ لا محالة، فسوفَ تفعلُ شيئًا آخرَ أو تقرأُ كتابًا ثانيًا.

أَأَضاعَ وقتَكَ؟ .

كلاّ، وبالتأكيد لا.

لكنْ يفترضُ أن يكونَ وقتُكَ أثمنَ من أن تُضيعَهُ في قراءةِ كلامِي.

بل حقيقةُ أن وقتكَ أثمنُ مِنْ أن تُنفقهُ في مُطالعةِ أقوالِي، فكلامُ اللهِ تعالى أعظمُ وأجلّ، فَلِمَ لا تُعطيهِ حقهُ من التأملِ والتّدبرِ، وتتركُ كلامي الذي لا يُثريكَ ولا يُفيدُكَ؟ .

أَفِقْ يا فتى، واستثمرْ وقتَكَ فيما يُفِيْدُكَ في الدّنيا والآخرةِ.

لعلك استفدتَ شيئًا من هذه التجربة، ولكنّه لا يُقاس بما كان مُتوقعًا.

أتفهم شعورك، فكثيرٌ من الأنشطة التي نقوم بها في حياتنا لا تُثمر نتائج ذات قيمة دائمة.

لكن، لا ننسَ أنّه لا يُمكننا الجزم بقيمة أي عملٍ بشريٍّ مسبقًا، فكلّ تجربةٍ تحملُ في طيّاتها دروسًا وعبرًا قد لا نُدركُها إلّا مع مرور الوقت.

في أعماق قلبكَ تُدركُ ما هو الصوابُ وما هو الخطأ، فذلك شعور فطري يميّزُ الإنسانَ عن غيره من الكائنات.

لا تدعْ الشكوكَ والوساوسَ تُسيطرَ عليكَ، بل اتّخذْ قرارًا حاسمًا بأن تُركّزَ على الهدفِ الأعظمِ في حياتكَ: نيلُ الجنةِ.

الإرادة القوية هي مفتاح النجاح في كلّ أمرٍ من أمور الحياة، بما في ذلك مواجهة النفس ووساوس الشيطان.

فكما أنّ النفس تميل إلى الراحة والكسل، فإنّ الشيطان يُحاولُ دائمًا إغواءَ الإنسانِ وإفسادهِ.

ولكن، بالإرادةِ القويةِ والإيمانِ الراسخِ، يُمكننا التغلّبُ على هذهِ الإغراءاتِ والوصولُ إلى ما نُريدُهُ.

يا صديقي، لا تهملْ آخرتكَ، فالموتُ حقٌّ لا مفرّ منهُ، ولا ندري متى يحينُ موعدُنا.

فكنْ دائمًا على استعدادٍ للقاءِ ربّكَ، واعملْ جاهدًا لنيلِ رضاهِ.

لا تُضيّعْ وقتكَ في الشهواتِ والملذّاتِ الفانيةِ، بل اسعَ لِبناءِ آخرةٍ سعيدةٍ تُنعمُ بها في الدارِ الآخرةِ.

لا تجعلْ عمركَ غفلةً، بل اسعَ جاهدًا لنيلِ رضا اللهِ والجنةِ.

ما عمرُكَ؟ .

سيموتُ الجميعُ لا محالةَ.

لا تُضَيِّعْ ستّينَ عامًا أو حتّى مئةَ عامٍ في هذه الحياةِ الفانيةِ، بل اِسْعَ لِلدّارِ الآخرةِ التي لا شقاءَ فيها.

فَالْجَنَّةُ دارُ سعادةٍ ونعيمٍ خالِدَيْنِ، بينما الدّنيا دارُ شقاءٍ ومِحَنٍ.

أَيّها الصّديقُ العزيزُ ، تذكرْ أنّ كلّ لحظةٍ في حياتكَ ثمينةٌ لا تُعوّضُ، وأنّ مسؤوليةَ استثمارِها بشكلٍ مُثمرٍ تقعُ على عاتقكَ أنتَ وحدكَ.

ارجعْ إلى اللهِ تعالى تائبًا مُخلصًا، واعزمْ على الالتزامِ بِتعاليمهِ.

تذكرْ قولَ اللهِ تعالى: "وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"

إنّ التوبةَ هي سبيلُ النجاةِ من الذنوبِ والخطايا، وهي مفتاحُ السعادةِ في الدنيا والآخرة.

لا تترددْ، بل ابدأْ رحلةَ التغييرِ اليومَ، ولتكنْ الجنةُ نصبَ عينيكَ في كلّ خطوةٍ تخطوها.

وتقوى الله خيرُ وسيلةٍ نتقربُ بها إلى خالقنا جلّ جلاله .... عباد الله، فإني أوصيكم وإيَّاي بتقوى الله، فاتقوا الله تعالى وأحسنوا يرحمكم الله ،

تقوى الله يقوم نورها في قلب كل مؤمن، على قدر تعظيمهِ لله وتعظيمهِ لأمر الله، وتعظيمه لشريعة الله، وتعظيمه لرسول الله محمد بن عبد الله، و تعظيمهِ للقرآن العظيم، وتعظيمهِ لشرعهِ المصُون.

على قدر الإيمان يكون التعظيم، وعلى قدر الإيمان والتعظيم تكون التقوى. والتقوى أن يبتعد عن كل ما يوجب غضب الله، عن كل ما يوجب سخط الله، عن كل ما يوجب البعد عن الله؛ من النظر الحرام والقول الحرام،

والحركة في فعْل معصيةٍ أو ترك واجبٍ، أوجبه الله تعالى علينا جلّ جلاله، أو أخذ حق الغير أو قطيعة الرحم أو عقوق والدَين، أو إهمال أبناء وبنات عن التربية الواجب علينا أن نربيَهم عليها،

توقِّي هذه الأشياء والابتعاد عنها خوفاً من الله ورجاءً في ثواب الله؛ هي التقوى التي وعد أصحابها جنات الله والخلود فيها (وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ*وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) .

وجبَ علينا أن نسلك سبيل المتقين ونحمل أنفسنا على ذلك ونجاهد أنفسنا حتى نبلغ الغاية، والغاية رضوان الربِّ ودخول الجنة.

فإنها آجالٌ معيَّنة محدَّدة معدودة، فيها الأيام والليالي والساعات والدقائق واللحظات والأنفاس فلا يزيد نفس ولا لحظة ولا ينقص في عمر أحد نفسٌ ولا لحظة من حين أن يخرج من بطن أمه، كم عدد أنفاسه؟.

كم يتنفس إلى وقت وفاته؟.

والله لا يزيد نفس ولا ينقص نفس، كلٌّ بعمرهِ الذي قدَّره الله له ربُّ السماوات والأرض جلَّ جلاله، ولكن من مات على حالةٍ جميلة وعلى صدقٍ مع الله وعلى وفاءٍ بعهد الله، فنِعم الموت على الإسلام والإيمان وحسن الخاتمة، والرجوع إلى فضل الله ورحمته من نعيم القبور ورؤية الجنة غدواً وعشيًّا، ومن البشارات ولقاء أرواح الأنبياء والمقربين والصالحين والحشر معهم يوم القيامة إلى دار الكرامة.

لكن من مات على غير الملَّة، أو مات على معصيةٍ تعرَّض للغضب وللسخط وللعذاب في القبر ولبشارة السوء والعياذ بالله أو لرؤية النار وهو في قبره. كما قال الله عن قوم فرعون الذين كذَّبوا سيدنا موسى، وأبَوا أن يطيعوا رسالة الله فأغرقهم الله في البحر، فهم يُعرضون على النار غدواً وعشياً، يعني كل صباح وكل مساء. قال: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) .

فإن القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حُفر النار (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) عظَّم أمر الله جلَّ جلاله وأمْر رسوله وخاف الرجوع إلى الله، وخاف عدم القبول عند الله، وخاف الوقوع في سخط الله فأقام أمر الله كما يحب (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ) التي تهوى الكِبر، والتي تهوى العُجب، والتي تهوى الانتقام من الناس بغير حق، والتي تهوى ترك الصلوات،

والتي تهوى إضاعة الأدب مع المساجد ـ بيوت الله ـ

وإضاعة حق الجار وإضاعة حق الرحِم؛ هذه النفس الأمارة قال تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فإن الجنة هي المأوى) اللهم اجعلنا من أهل جنتك وأعذنا من النار وموجبات النار.

أيها الأصدقاء،

تقوى الله هي الوسيلة إلى دخول جنتهِ، وإلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن خير الدنيا والآخرة في تقوى الله وطاعته وشرَّ الدنيا والآخرة في معصيةِ الله ومخالفته. اللهم ارزقنا تقواك، وهب لنا رضاك، وأجزل لنا عطاك، وتولَّنا فيمن تولِّيت، واهدنا فيمن هديت، وثبتنا على ما تحب منا وترضى به عنا يا رب العالمين.

فَاسْعَ لِمَا يُدْخِلُكَ جَنَّتَهُ يَا صديقي

وَاتَّقِ اللَّهَ وَلَا تتبِعِ الشيطَانَ

فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

وَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَفْعَلُونَ خَبِيرٌ

وَلا تَتَمَنَّى الْمَوْتَ إِلَّا بِرَغْبَةٍ فِي اللِّقَاءِ بِرَبِّكَ

فَإِنَّ الْمَوْتَ آتٍ إِلَى كُلِّ حَيٍّ

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ وَالْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ

فَلاَ تَتَمَسَّكْ بِمَا زَائِلٌ وَاتَّخِذْ مَا لَا يَزُولُ

وَإِنَّ أَكْرَمَ الْمَقَامَاتِ مَقَامُ الْمُتَّقِينَ

فَاسْعَ لِتَكُونَ مِنْهُمْ وَتَفُوزَ بِرِضْوَانِ رَبِّكَ

وَلاَ تَنْسَ أَنَّكَ مُحَاسَبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَكُنْ حَذِرًا

وَاعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا

وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا

وَادْعُ اللَّهَ نَفْسَكَ وَأَهْلَكَ وَإِخْوَانَكَ فَإِنَّهُ أَسْمَعُ السَّامِعِينَ

وَأَكْرَمُ الْمُكْرِمِينَ

وَأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

وَلَا تَنْسَ أَنَّ الدُّعَاءَ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ

فَادْعُ اللَّهَ بِكُلِّ مَا تَشَاءُ فَهُوَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

وَأَخِيرًا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لِطَاعَتِهِ وَأَنْ يُدْخِلَنَا جَنَّتَهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِكْرَامِهِ.

وأعوذ بالله أن أذكركم به وأنساه ...

وَصَلِّ اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآلة وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

«هنيئاً لك يا قارئَ بنيلِكَ كلماتي!.
أتمنّى لو كنتُ مكانكَ في هذه
اللحظةِ لأستمتعُ بهذا التحفةِ الفنيةِ.
فَالكاتبُ، على الرغمِ من كونهُ مبدعَ
هذه الكلماتِ، لا يستطيعُ أن يشعرَ
بنفسِ المشاعرِ التي يشعرُ بها
القارئُ.»